

إفستة الإديبي

عادات وتقاليد
الحارات الدمشقية القديمة
محاضرات ومقالات



عادات ووقت اليد
الحارات الدمشقية القديمة

لوحة الغلاف للفنان :
غسان السباعي

التفصيل:
إشيلية للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق ✉ ٤٣٦٣ ، سورية



الإخراج والإشراف الفني : فراس السباعي

إفـتـة الإـدبـي

عادات وتقاليد
الحارات الدمشقية القديمة
محاضرات ومقالات



الطبعة الأولى

شباط (فبراير) ١٩٩٦

إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع

دمشق ، ص.ب ٤٣٦٣

الإهداء

إلى أبنائي؛
«لبنى»، و«ياسر»، و«زياد»،
وقد حملوا في مَعْتَرِبِهِمْ دمشق؛
كَلِمَةً تُرِفُّ عَلَى الشَّفَةِ
وإِيمَاضَةً فِي الْعَيْنِ،
وَحَفَقَةً فِي الْفُؤَادِ،
وَحُبًّا، وَحَنِينًا...
أهدي بعض ما ألهمتني مدينتُهم الحبيبة...

إلفة

مادات وتقالييد
الحارات المشقية القديمة

أُلقيت هذه المحاضرة
في «مكتبة الأسد» مساء ٥ - ١٠ - ١٩٩٢.

عادات وتقاليد الحارات الدمشقية القديمة

كان لحاراتنا الدمشقية القديمة عادات وتقاليد يُعمل بها وكانها قوانين مكتوبة لا يجوز خرقها أبدًا. كان أجل ما في هذه العادات والتقاليد هو التعاطف الودّي الإنسانيّ الذي يشمل أبناء الحارة جميعهم، حتّى لكانهم أسرة واحدة. كانوا يفرحون معًا، ويحزنون معًا، وكثيرًا ما كانوا يجتمعون في مضافة أحد وجهاء الحارة التي كانت تعقد عادة في البيت البرّاني. كان يجلس قراؤهم إلى جانب أغنيائهم، لا يشمخ غنيهم على فقيرهم، ولا يتعالى كبيرهم على صغيرهم. كانوا يتحلّون مشكلات حارتهم قبل أن تصل إلى الحكومة، يصلحون المتشاجرين، ويساعدون المنكوب والمرضى، والعاطل عن العمل، يجهزون الميت الفقير، ويعطفون على الأرملة والأيتام. كان بينهم تضامنٌ اجتماعيٌّ عفويٌّ تفرضه الشهامة والنخوة، والشعور الإنسانيّ مع الغير، لا سيّما إذا كان لهذا الغير جازًا... فللجار حقٌّ على جاره لا يمكن التغاضي عنه. وكان «قبضايات» الحيّ، أو «الزكرية»، يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن

أمن الحارة، وعن آداب أبنائها وبناتها فيما يختص بالشرف والعرض..

أحب أن أروي لكم حادثة تؤكد هذا التضامن العفوي الذي كان بين أبناء الحارة الواحدة،

تداعى سقف إحدى الغرف في بيتنا الدمشقي القديم، فجاء والذي ببناء من أهل الحارة اسمه «عارف الكلاس» لإصلاح السقف، وكلف البناء أن يشتري هو مواد البناء، فجاء «عارف الكلاس» في اليوم التالي وقد اشترى مواد تكفي لإصلاح سقفيْن! فسأله والذي قائلًا:

– لمَ هذا كله يا عارف وأنا طلبت منك إصلاح سقف واحد؟! أجابه البناء:

– نسيت والله يا أفندي أن أخذ رأيك، ولكنني على يقين أنك لا تعارض. سقف غرفة جارنا فلان أوشك على الهبوط، وهو مريض كما تعلم وعاطل عن العمل، وقد دعاي لإصلاح السقف فوجد الكلفة باهظة أكبر من قدرته فقال لي: دعه يهبط علينا، ويخلصنا من هذه الحياة المؤرّة!... فقلت في نفسي: نتعاون أنا وأنت على إصلاح سقف جارنا، الكلفة منك يا أفندي، والشغل عليّ. فشكره والذي لأنه أتاح له مساعدة أحد الجيران. ولا شك أن البناء «عارف الكلاس» هذا أكرم من والذي فقد عمل يومين

كاملين تجنّأ على حساب قوته اليوميّ ليسانس جاره المريض
الفقير...

كان إذا تصادف أن في الحارة عرساً، وقد وُزعت الدعوات ولم
يبق لموعد العرس إلا أيام قلائل فتوفي أحد الجيران، كان يؤجل
العرس أربعين يوماً، لأنه لا يجوز أن يكون في الحارة الواحدة بيت
فيه عزاء وحزن، وآخر فيه فرح ومرح. لهذا مما يؤكد أيضاً أن الجار
كان بمثابة أقرب الأقرباء، وأنا والله أجّل عرسي أربعين يوماً لأنه
توفي «مصطفى باشا العابد» قبل العرس بثلاثة أيام وكان جاراً
لبيت العريس فأضطروا أن يؤجلوا العرس أربعين يوماً.

كان إذا حدث سوء تفاهم بين أسرّتين من سكان الحارة أدّى
إلى القطيعة ثم توفي أحد أفراد إحدى الأسرّتين، كان يتناسى كلّ
شيء تجاه الموت وتأتي الأسرة المقاطعة للتعزية، وكان شيئاً لم يكن،
وتعود المياه إلى مجاريها.

كان أقرب الجيران لبیت المتوفى يفتح بيته لاستقبال المعزين من
الرجال، ويترك بيت المتوفى لاستقبال المعزّيات من النساء، ثلاثة
أيام كاملة وفي هذا ما فيه من الإزعاج. كذلك في الأفراح إذا كان
بيت العريس صغيراً لا يتسع لإقامة العرس، كان يستعير بيت أحد
جيرانه.

بهذه المناسبة، وتأييداً لقولي هذا، أحب أن أروي لكم حادثة قرأتها
في كتاب نفيس جداً صدر حديثاً من تأليف سفيرنا السابق الأستاذ

«جمال الفراء»، أسم الكتاب «الله يعمرك يا حيّ الوردات»، وحيّ الوردات لهذا في القنوات، يحدثنا المؤلف حديثاً ممتعاً عن «حارة الطالع» في حيّ الوردات، وهي الحارة التي نشأ فيها المؤلف نفسه، يصف في هذا الكتاب عادات وتقاليد حاراتنا الشامية القديمة منذ مطلع القرن العشرين حتى الاحتلال الفرنسي لبلادنا. ومن خلال الحديث عن هذه الحارة الصغيرة يروي لنا المؤلف أحداثاً تاريخية هامة مرّت ببلادنا أو بالأحرى تاريخ ما أهمله التاريخ في تلك الفترة.

أما الحادثة فإليكم إياها:

حُطِبَ شابٌ فقير يتّاع «عرق سوس» أسمه «عمر» من حارة الطالع، فتاة يتيمة أسمها «سعادة»، وأمتدّت الخطبة سنة كاملة، فجاءت أمّ العروس إلى بيت العريس وقالت لأُمّه:

— يا حاجة إلى متى ننتظر؟؟ وقد مضى على الخطبة سنة كاملة!!

قالت أمّ العريس:

— بوّدي، والله، أن أقيم عرساً لعمر وسعاد يقوم له حيّ الوردات ويقعد، ولكن يا بنتي ما باليد حيلة!... بيتنا صغير لا يصلح للأعراس والحالة ضيقة وعاشين بالسترة.

أجابت أمّ العروس:

— ولا بهّمك يا حاجة مالنا وللأعراس؟... لا يأتي من ورائها إلا وجع الرأس، خليها أهلية بمحليّة.

وبيلغ هذا الحواز أكبر غني في الحارة، هو «درويش آغا القادري». فأخذته الحمى والنخوة، فما كان منه إلا أن أوفد زوجه «أم أيمن» لتقول لأم العريس،

– نحن جيران، وأبناء حارة واحدة مثل الأهل، وأبنك عمر بمعزة أبننا أيمن. أقسم الأغا بالله العظيم أن يقيم عرس عمر وسعاد في بيته وعلى حسابه كما لو كان عمر ولده.

وفعلًا أقام «درويش آغا القادري» عرسًا رائعًا للفقيرين اليتيمين، حتى إنه جاء بأكبر فرقة موسيقية كانت تُحيي الأعراس في دمشق آنئذٍ. هي فرقة «بنات مكتو اليهود»، وكان سكان حيّ الوردات قد سمعوا كثيرًا عن هذه الفرقة دون أن يروها، فأتاح لهم «درويش آغا القادري» رؤيتها بمناسبة عرس «عمر العرقسوسي».

أنتهى كلام الأستاذ «جمال الفراء».

ما أروع هذا التعاطف الودّي الإنساني، وهذا التواضع!.. تأتي زوجة أغني واحد في الحارة إلى بيت امرأة فقيرة لتقول لها، نحن أهل وأبناء حارة واحدة وأبنك عمر بمعزة أبننا أيمن!

أما إذا كانت العروس من طبقة دون الوسطى أو فقيرة، فكانت ترتدي يوم عرسها أحسن ثيابها. أما العروس الغنية فكانت ترتدي ثوبًا من القطيفة – أي المخمل – أو الساتان محلىّ بتطريز الضرماء، وكثيرًا ما كان يؤتى ببذلات العرايس من «أستانيول»، وكانت ثمينة

جداً، لأنَّ خيوط التطريز مطلية بالذهب الخالص، وتظلُّ العروس ترتدي هذه البدلة في الأفراح إلى ما شاء الله، أو إلى أن تضيق عليها فتبقيها عندئذٍ بثمن لا بأس به. ولكن لما أصبحنا نقلدُ الغرب في كلِّ شيء، أصبح حتماً لزاماً على العروس أن ترتدي يوم عرسها ثوباً أبيض كالعروس الغربية في عصرنا الراهن. ولا ترتدي العروس ثوبها الأبيض هذا إلا يوم عرسها فقط، أي مرة واحدة مهما كلف من الأموال.

في الماضي كانت العروس ترتدي ثوب عرسها كلما دعيت إلى فرح لمدة سنة كاملة. بعدئذٍ تحتفظ به ويكرس للإعارة، - لأنَّ العروس التي هي من طبقة دون الوسطى أو فقيرة - لا تستطيع أن تقتني ثوباً للمناسبات فقط، فكانت تستعير ثوباً أبيض ولا غضاضة في ذلك أبداً.

كذلك كانت تُستعار الحلي لتزيّن العروس. يقال مثلاً: فلانة عندها مجمع صيغة، أي عندها جميع أنواع الحلي، وكانت صاحبة هذه الحلي كثيراً ما تعبر حليتها لتزيّن العرائس الفقيرات وأحياناً تعيرها لعروس لا تعرفها ولا تعرف أهلها. تأتي أمّ العروس إلى إحدى صديقاتها تقول لها: سمعنا أنَّ عند بنت عمك، أو بنت خالك، مجمع صيغة، هل يمكن أن تستعيره لنا لتزيّن عروسنا يوم عرسها؟

تقول لها: تكرم عينك... وتأتي بالحلي الثمينة دون وصل أو أي

ضمان، مجرد ثقة فقط، وأحيانًا تذهب صاحبة الحلي إلى الأفراح دون أي حلية، لأن حليها معارة في أكثر الأحيان.

بمثل هذا التضامن كانت العروس الفقيرة تزهر وتتعم يوم عرسها، أي يوم فرحة عمرها، كثرة عروس غنية.

كانت العادة أن تقدّم هدايا للعروسين تسمى «النقوط». أهل العريس كانوا يقدمون لأبنهم أشياء كمالية للبيت، كالأواني الفضية أو الصينية أو السجاد، كل حسب طاقته. أما أهل العروس فكانوا يقدمون لأبنتهم حلًا ذهبيّة أو نقودًا ذهبيّة أو سجاد، وكانوا يسقون هذه الأشياء «عقدة»، يعني إذا احتاجت المرأة ذات يوم إلى شيء من المال تستطيع أن تبيع بعض هذه الأشياء التي تحضها هي فتحل مشاكلها وتفك عقدها، ولذا سميت «عقدة» لتفك عند اللزوم.

أما أهل الحارة، فكانوا يقدمون لأبي العريس - وهو الذي كان يقيم العرس - مؤونة: رز، سكر، سمن، زيت، بن، وأحيانًا خاروف (واعتقد أنّ هذه العادة ما تزال متبعة في بعض القرى إلى الآن)، لأن أبا العريس مضطّر لأن يقيم وليمة يوم العرس، ثم يقيم كل يوم وليمتين لمدة سبعة أيام. لأن أهل العروس من النساء كانوا يزورون عند بيت العريس سبعة أيام كاملة، كذلك عدد من أهل العريس، لتقبّل التهاني بالعرس، أليس هذا كله من التضامن الاجتماعي؟

وقد تجلّى هذا التضامن أكثر ما تجلّى إبان الثورة السورية الكبرى، وقد ثبت تاريخيًا أنّ الثورة السورية الكبرى ضدّ الاستعمار

الفرنسي لم يأتها أي دعم من خارج البلاد السورية. فقد قام بها السوريون وحدهم، وكان عدد سكان سوريا عام ١٩٢٥ لا يتجاوز الثلاثة ملايين نسمة، وقد أستطاعت هذه الدولة الصغيرة الفقيرة، بفضل تضحية أبنائها وشجاعتهم، أن تصمد أمام فرنسا الدولة الكبرى سنتين كاملتين.

من كان يعمل أسر هؤلاء الثوار؟

كان يعيلهم أبناء حاراتهم. كان الناصر يلتحق بالثورة وهو مطمئن على أسرته، أما إذا ألتحق بالثورة عدد كبير من أبناء حارة واحدة، وكانت هذه الحارة فقيرة لا تستطيع أن تقدم العون لأسر كثيرة، فكانت تجمع الإعانات سرًا من أحياء أخرى، وغالبًا بواسطة النساء اللواتي كنّ يدخلن مخازن التجار محجبات ويجمعن منهم الإعانات. والحق يقال لقد بذل التجار كثيرًا من أموالهم في سبيل الثورة السورية على الرغم من الأزمات الاقتصادية المستحكمة آنذاك.

ورد في كتاب «دمشق أيام زمان» للأديب الأستاذ «عادل أبو شنب» ما يلي:

كانت تجري أمور في حارات دمشق وفق تقاليد قديمة متوارثة، كانت وكأنها قوانين مكتوبة، أذكر كيف كانت أسر في حاراتنا تفقد معيها في الموت غالبًا، فكانت هذه الأسرة أو تلك تتلقى من المحسنين في الحارة معونات لا حصر لها، ولما كان المحسن يعلن عن نفسه. كان يقرع الباب رجل ويقول للمرأة الشكلى بموت

معيها، أفتحي لي طريق يا اختي، جابهلكن عدل طحين، أو تنكة
سمنة، أو تنكة زيت، أو كيس سكر، أو كيس رز، وكان الرجل
يُدخل ما يحمله ويضعه في صحن الدَّار وينصرف. بهذا التقليد
عاشت أُمُّ كَثِيرَة مَفْجُوعَة في حاراتنا الدمشقيّة، كانت تصلها
مساعداً يوميّة تقريباً، بما في ذلك مبالغ نقدية كانت ترسل إليها
بواسطة نساء أو رجال يقرعون الباب ويمنحون ما يمنحون دون أن
يعلنوا أسماء المحسنين. وكانت مقولة «ما حدا بموت من الجوع»
مطبقة في حاراتنا بالفعل.

أنتهى كلام الأستاذ «عادل أبو شنب».

كان إذا جاء إلى الحارة جار جديد، أشتري فيها بيتاً أو أستأجر
بيتاً، يُرسل إليه الطعام من قبل أقرب جيرانه لمدة ثلاثة أيام، لأنَّ
صاحبة البيت مشغولة بتنظيف البيت وترتيبه ليس لديها الوقت
الكافي لإعداد الطعام، كانوا يفعلون ذلك وهم لا يعرفون بعدُ ذلك
الجار الجديد، لكنه سيصبح جازاً، له عليهم حقُّ الجوار، وكان هو
يتقبَّل ما يرسل إليه من أشخاص لا يعرفهم بعدُ لأنَّها عادة متبعة
ومعروفة. وبعد ثلاثة أيام من مجيئه إلى الحارة يبدأ الجيران بزيارته
للتعرّف عليه، الرجال يزورونه في الليل والنساء في النهار.

أما إذا لاحظ أهل الحارة أنَّ في حارتهم بيتاً سئى الشمعة،
فكانوا يرسلون إلى صاحب البيت وفداً يمثل الحارة ليبلغه أنَّ
وجوده في حارتهم غير مرغوب فيه، فلما أن يرحل عن الحارة بالستر

والسلامة وإما أن يخرجوه منها بطرقهم الخاصة. فإذا أبى الرحيل راحوا يسلطون عليه صبيان الحارة يضعون القاذورات أمام باب بيته فلا يستطيع الدخول أو الخروج إلا بصعوبة بالغة، يقدفون شبائيكه بالحجارة، يذلون الماء القذر على من يدخل بيته أو يخرج منه، وهكذا... حتى يرحل عن الحارة مضطراً!

إذا شعرت إحدى نساء الحارة أن جارتها فوجئت بضيوف في ميعاد الغداء أو العشاء، فكانت ترفضها حالاً بسكبة من عندها أي تبعث إليها بشيء من الطعام، فربما كانت جارتها غير مستعدة لتهيئة مائدة لضيوف. فالضيوف كانوا يأتون غالباً على غير موعد، لأنه لم تكن حينئذٍ تلفونات لأخذ المواعيد.

وكثيراً ما كان الجيران يتبادلون السكب وبخاصة في شهر رمضان، لأن الصائم يلد له أن يفاجأ بأكلة غير منتظرة، والطعام الذي يهدى غالباً من المشهيات أو من الأنواع التي يحتاج إعدادها إلى جهد وبراعة في الطبخ كأكلة القَبَوات والمشمشية أو البسماشكات أو أنواع الكبُب.

كان أبن الحارة يدافع عن أبن حارته ظالماً أو مظلوماً، ويحميه من أي سوء وكآته أخ له. في كتاب «عاشها كلها» للدكتور «كاظم الداغستاني» وردت هذه الحادثة:

أقام الثورة السورية، وفي ليلة حالكة السواد قارصة البرد، مر من حارة السكة في حي الصالحية أربعة توار كانت مهمتهم اختطاف

طبيب من حي آخر كان قد أبى أن يعمل مع المجاهدين في مواقعهم الجديدة، ولما لم يجدوا الطبيب في داره عادوا عن طريق حارة السكة أيضاً، فأقترح أحدهم كي لا يعودوا خائبين أن يختطفوا ابن الداغستاني عساه يفتدي نفسه بما يستطيع من المال. فعارض هذا الاقتراح «برؤ النيني» أحد هؤلاء الثوار وأبن حارة السكة أشد المعارضة، ولكن رفقاه أصرّوا على تنفيذ ما عزموا عليه، وجاؤوا بسلم من أحد البيوت وألقوه على جدار بيت الداغستاني، وهمّ أحدهم بتسلقه، فما كان من «برؤ النيني» إلا أن أستلّ خنجره المجدلاني بيده اليمنى، وأشهر مسدسه بيده اليسرى وصاح برفاقه بصوت سمعه بعض من كانت نوافذ بيوتهم تطل على الطريق ونقلوا الحديث في اليوم التالي إلى بيت الداغستاني: ليس هذا من المهمة التي عهدت إلينا، وبيت الداغستاني هم أبناء حارقي، وإخوتي بالرضاع، وأنا أعرف وأنتم تعرفون أنهم أعطوا من مالهم للثورة فوق طاقتهم. فمن شاء أن تؤلّول عليه أمه هذه الليلة فليقترب من هذا السلم، وليتخط هذا الجدار إذا استطاع. ورأى زملاء «برؤ النيني» ما حزم عليه أمره، وقد عرفوه وأختبروه إذا قال فعل. فلم يُنيس أحدهم ببنت شفة. فأقترّب هو من السلم وألقاه جانباً وبقي واقفاً شاهراً سلاحه حتّى مشوا فمشى وراءهم.

أنتهى كلام الدكتور «كاظم الداغستاني».

حتّى اللص كان لا يسرق أبناء حارته، إنما كان يسرق من حارة أخرى!



أعتاد الشباب أن يتحرّشوا أحيانًا بالصبايا فيتبعوهنّ في الطرقات الخالية، ويُسمعوهنّ كلمات غزليّة، وكثيرًا ما كانوا يفتعلون الزحام ليحتكوا بهنّ أو يلمسوهنّ أو يقرصوهنّ، لكن بنت الحارة كان لها حرمة خاصّة عند أبناء حارتها، فلا يمكن أن يغازلها واحد منهم لأنّه يعتبرها بمثابة أخته تمامًا. ولكن لا نستطيع أن نجزم بمثل هذه الأمور، قد يُعجب أبْن الحارة، أو بالأحرى أبْن الجيران، ببنت الجيران ويرغب في مغاللتها، وقد تستجيب هي أيضًا لمغاللته، ولكن إذا حدث شيء من هذا فكان يحدث سرًّا ويمتتهى السُرّيّة، وقلّما يستطيع أحد اكتشافه، وإذا اكتشف فويل للأثنين!...

هذه المناسبة أحبّ أن أروي لكم هذه الحادثة الطريفة التي جرت في «حارة السكّة» (في حيّ العفيف).

أنا بنت حارة السكّة، تزوّجتُ في حيّ المهاجرين، فكنت حين أتّي لزهارة أهلي أخذ «الترام» النازل من المهاجرين، وأنزل منه في موقف له قرب مدخل حارة السكّة وأمام دار الطيّب الذكر المرحوم الدكتور «رضا سعيد». قرب هذا الموقف كان يقف بائع «دُرّة» أسمه «محمد الطراب»، وكان شائعًا مرحًا أنيس الوجه، ولكنّ المسكين كان قد فقد ساقه في حادث سيّارة، فكان يضع حلّة الدُرّة بين دكان الحمصاني «سعدو قزازة» ودكان الخضري «تجّيجها»، وعن

بمين الحضري تأتي دكان «أبو حاتم اللحام»، وعن اليسار بعد قليل
دكان «أبو صادق الطرودي».

كان «محمد الطراب» هذا يقف أمام حلة الذرة، واضعاً عكازه
تحت إبطه، يقلّب عرائيس الذرة بملقط ويغازل المازات بندائه على
الذرة، فإذا مَرّت سيّدة ذات قوام جميل كان ينادي وهو يُلَوِّح بأطول
عرنوس ذرة بيده:

– ريته يسلم ها الطول يا درّا!

لا مأخذ عليه أبدًا، فهو ينادي على الذرة!

وكنت مغرمةً بنداءات «محمد الطراب» هذه، حتّى حفظتها
كلّها. وقد تمرّ أحيانًا سيّدة قصيرة ولكنّها جميلة، لأنّ الحجاب بدأ
يُشَفُّ في أوائل الأربعينات حتّى أصبحت تظهر من خلاله معالم
الوجه واضحةً تمامًا، كان ينادي لها «محمد الطراب»:

– والله حلوة ومكبسة ها الدرا!

بعد قليل تمرّ فتاة في أوّل طلعتها، حديثة عهد بالحجاب، فإذا
«محمد الطراب» ينادي:

– طاب أوانك يا درّا، والله طاب!..

أما إذا مَرّت سيّدة جميلة ولكنّها متقدّمة بالسنّ قليلًا، فإنه
ينادي:

- تعال وَدُغ، الأكلة والوداع!

وعندما تمرُّ سيِّدةٌ شقراء، كان ينادي لها:

- شعرك شباشيل الذهب يا درا!

ولكن عندما تمرُّ سمراء جميلة لا يُعفيها «محمد الطراب» من غزله، كان ينادي لها،

- سمرة ومزكاية ها الدرا!

والذرة المسلوقة عمرها ما كانت سمراء!

وعندما تمرُّ فتاة ليست جميلة، ولكنها لعوب يُسمع لنقرات كعبها العالي على الرصيف عريداً موزونة، فإنه يتأملها ملياً، ثم يصرخ:

- تعال أتفرّج، هالبيو ها الدرا، والله هالبيو!

كان أصحاب الدكاكين، كلّما نادى «محمد الطراب»، يتركون الميزان والزبائن ويمدّون رؤوسهم من دكاكينهم، ليروا هل ينطبق النداء على السيِّدة المازّة أم لا؟.. حتّى السَّمان «أبو صادق الطرودي»، الرجل الوقور المعدّل المتزن، كان أيضاً يترك الزبائن ويمدّ رأسه من دكانه ويعاين السيِّدة المازّة بنظرات فاحصة، فإذا وجد أنّ النداء جاء في محله هزّ رأسه هزّاً رضاً، وعاد إلى عمله. أمّا عندما كنت أمراً، فإنّ «محمد الطراب» كان يَغضُّ الطَّرْفَ

وبصمت عن النداء. ولو مرّت أثناء مروري سيّدة تستحق أن ينادي لها، فإنّه يظلّ صامتًا حتّى أدخل بيتنا. وكان لا يبعد عن حلّة الذرة إلا قليلاً، خشية أن يقع التباس، فالقضية حساسة جدًّا؛ أنا بنت الحارة، بنت فلان وأخت فلان وفلان، ولو سكنتُ في حي آخر أظلّ متمتعة بهذا الأمتياز، أيّ أنا بمثابة أخت لـ «محمد الطراب»، أيّ عرضه عرضي..

ذات مرّة أتيت لزبارة أهلي، نزلت من الترام، وكنت آتي من جهة الغرب ووجه «محمد الطراب» متّجه نحو الشرق، فلا يراني حتّى أمرّ من أمامه، وإذا إحدى صديقاتي تبرز من الحارة التي كانت على كتف دكان الحمصاني «سعدو قزازة»، وتمرّ من أمام حلّة الذرة وتقف عند موقف الترام، أيّ إلى جانب «محمد الطراب»، تنتظر الترام الصاعد إلى المهاجرين، وكانت صديقتي هذه من أجل بنات دمشق، وأكثرهنّ أناقة.

وقفت أنا متوارية خلف عمود كهرباء، بحيث لا تراني هي ولا يراني «محمد الطراب»، لأنّه لو رآني سيصمت عن النداء، وكنت حريصة جدًّا على سماع ماذا سينادي لصديقتي الجميلة هذه؟ وأذكر أنها كانت في العشرين من عمرها تولدي معطفاً أبيض، وقد أسبلت على وجهها نقاباً كحلّياً من الموسلين الشفاف جدًّا راح ينشر على وجهها ظلالاً بنفسجيّة فاتحة تزيد جمالها جمالاً.. راح «محمد الطراب» ينظر إليها صامتاً، مصوّباً نظره نحوها وعكازّه تحت

بين المعلمين والصُّنَّاع والأجراء، ويكون واسطة بين أهل حرفته والدولة. وكان يُنتخب بالتركية، ومُشترط فيه أن يكون ذا مروءة، ودين، ونخوة، حسنَ السيرة، معروفًا بكرمه وشجاعته، وهو بمثابة رئيس نقابة في عصرنا هذا.

للدكتور «أحمد أمين» بحثٌ طريف حول هذه الظاهرة نُشر له في كتاب عنوانه: «الصعلكة والفتوة في الإسلام» صدر عن سلسلة إقرأ. ويُقْبَرُ الدكتور شيوخ الحرف في عداد الفتيان الذين يسمونهم في مصر «فُتُوَّة»، وهي كلمة مرادفة لكلمة «قبضاي» أو «زكُرت» في لهجتنا الشامية العامية. وكان لهم تقاليد يُزججُ الدكتور أصولها إلى أتيام الفاطميين، وظلَّت مراسمها وطقوسها سائدة في مصر، وبلاد الشام، وتركيا، لا تختلف عن بعضها إلا قليلاً إلى أوائل هذا القرن حيث أُسْتُبدلت بها التَّقَابَات.

كان الصَّانِع لا يستطيع أن يصبح معلِّماً ويفتح دُكَّاناً حتَّى يأذن له شيخ الحرفة، وما كان هذا ليأذن إلا بعد أن يأخذ رأي معلِّم هذا الصانع فيما إذا أصبح هذا الصانع يتقن حرفته تماماً، وأهلاً لأن يكون معلِّماً يؤتمن على مصالح الناس وأموالهم، فإذا جاء الجواب بالإيجاب تُقام عندئذٍ لهذا الصانع حفلةٌ تسمَّى «حفلة الشدَّة»، ولها رسم عليه أن يدفعه لصندوق الحرفة. وكانت تُقام هذه الحفلة عادة لعدَّة صُنَّاع ينتسبون إلى حرفٍ مختلفة في يوم واحد، في أحد بساتين الشام، وكان يُدعى إلى هذه الحفلة معلِّمو الحرف

وصنّاعهم، وشيخ مشايخ الحرفيين، وشيوخ الحرف كلها. وبعد الطعام كان يُؤتى بالصُّنّاع، المرشّحين ليصبحوا معلّمين، مؤثوقي الأيدي، ويكون جميع الحاضرين جالسين على ركبهم مطرقي الرؤوس ليكون للموقف جلال ورهبة.

ويقف شيخ الحرفة ويقول:

- بسم الله الرحمن الرحيم. لنبدأ أيها الأخوان عملنا..

ثم يقرأ الفاتحة، ويتمتم جميع الحاضرين بقراءتها. ثم يتقدّم من الصّانع الذي يعمل في حرفته فيفك وثاقه، ويركع لهذا أمام شيخ الحرفة نصف ركعة، ويركع الشيخ أيضًا، ويتلاصقان حتّى تمسّ الركبتان بعضهما، ثم يمسك الشيخ بيد الصّانع مسكة خاصّة متعارفًا عليها فيما بينهم، ويتعاهدان على الأخوة، ثم يُعيّن أحد المعلّمين أبا لهذا الصّانع باتمر بأمره، ويسأله النصّح والتوجيه. ورّما يصبح الصّانع على صلة طيبة مع هذا الأب الروحي أكثر مما هو مع أبيه الحقيقي. فإذا أنتهت هذه الطُقوس يُلقّي شيخ مشايخ الحرفيّين خطابًا، ينصح فيه الصُّنّاع الذين أصبحوا معلّمين بعد حفلة الشدّ هذه، يقول في خطابه فيما يقول:

- يا بنيّ إنّ جميع أهل الحرف أمناء على الأعراض، والأرواح، والأموال. والامانة هي النّمين، فكُنْ صادقًا أمينًا، وأعلم أنّ كارك مثل عرضك فحافظ عليه، وإذا أسّلمت أموال الناس فلا تفرّط فيها، وإياك أن تخون أهل حرفتك، والخائن مسؤول أمام الله.

وفي كتاب «دمشق في مطلع القرن العشرين» «لحلمي العلاف» فصل عن مهنة المتجدين يذكر فيه كيف يؤدّب المتجد أجيره الذي سيصطحبه معه إلى بيوت الناس، فيبدأ أولاً بمراقبة أوضاعه، سعاله، عطاسه، جلوسه، لهجته، نظافته، ويوالي إسداء النصيح إليه بكلّ صرامة، والشوط إلى جانبه، فإذا رأى شذوذاً نزل بالشوط على يديه ورجليه، وبخاصة إذا لم تكونا نظيفتين، ثم يراقب طعامه ويقومه، ويصحّحه بأن يطلب منه أن يأكل بأدب فلا يُشرك كفه وأصابعه كلّها عندما يأكل بيده، وإذا أكل بالملقعة فلا يدخلها إلى آخر فمه، وأن لا يبحث عن اللحم، وأن يأكل ممّا يليه، وأن يحاول جهده فلا يُسمع صوت مضغه، وأن يغسل يديه قبل الطعام وبعده.

ثم يقول له:

— عندما تراني كففت عن الطعام فأكفّف أنت أيضاً.

فإذا وثق من تأديبه أصطحبه معه إلى بيوت زبائنه.

وكانت العادة أن يكون لكلّ حرفة صندوق يودّع عند شيخ الحرفة، فيه أكياس مختلفة الألوان تُحفظ فيها أموال الحرفة، ومن هذا الصندوق يصرف على العاجزين من أبناء الحرفة، فهي كالضمان الاجتماعي في عصرنا هذا.

كانت كلمة شيخ الحرفة نافذة على أبناء حرفته لا يخالفونه أبداً. ومن قبل ذلك ما رواه المؤرخ «الجبرتي» عن «حجاج» الحضري، شيخ الحضريّة في مصر، الذي شقّه والي مصر دون ذنب جناه، لأنه

- أي الوالي - وجد شيخ الحضرة هذا منافسا له، يستمع له
الحرفيون أكثر مما يستمعون للوالي نفسه.

كان للحرفيين في دمشق اجتماع عام يعقد في أول شهر أيار من
كل عام، ويُعلن عنه قبل خمسة عشر يوما، وله جدول أعمال،
تسبقة اجتماعات لكل حرفة على حدة. وكان يدعى إلى هذا
الاجتماع وجهاء البلد، ويقام مطبخ عظيم يُعد الأكل لجميع
الحاضرين. وقد حضر قنصل هولندا حفلة شد فرأى أن هناك تشابها
كثيرا بين هذه النظم والتقاليد وبين نظم الماسونية وطقوسها.
وتسائل القنصل:

ما هي العلاقة بين تلك النظم؟؟ وهل أخذت الماسونية نظمها
من نظم الحرفيين أم بالعكس؟ وإذا لم تكن هناك علاقة فكيف
تشابهت تلك النظم إلى هذا الحد؟؟..

ورجا القنصل الباحثين أن يجيبوه عن أسئلته تلك. ويقول
الدكتور «أحمد أمين»: ولكنني لم أَر بحثا يُجيب عن هذه الأسئلة...

* * *

من الحوادث الطريفة اللطيفة، التي كان يتوارثها شيوخ حينا في
الصالحية، هذه الحادثة: أحرق بيت أحد البساتنة وموسمه كله،
حتى لم يبق عنده شيء يُقيم به أودة، وكان الرجل عزيز النفس،
كريمًا مثنافاً، يصعب عليه أن يمدّ يده إلى أحد ولو كان من أعزّ

أصدقائه، فجمع شيخ البساتنة بساتنة دمشق جميعهم ليتداولوا فيما بينهم ويجدوا طريقة يمكنهم بها أن يساعدوا هذا الرجل المنكوب دون أن يجرحوا كرامته.

وبعد تفكير طويل أهدئ شيخ البساتنة إلى حل مناسب، وهو أن يمتنع بساتنة دمشق جميعهم عن زراعة البقدونس سنة كاملة، وقدعوا هذا الرجل المنكوب يحتكرها وحده، ولن يخسر البساتنة شيئاً يذكر، فماذا تغل مسكبة البقدونس للواحد منهم؟؟..

وما تمضي السنة حتى يُغْوِض الرجل خسارته كلها من زراعة البقدونس، وسُمِّيت أسرته منذ ذلك الحين «بيت بقدونس»، وما تزال هذه الأسرة في دمشق تحمل هذا اللقب، «بيت بقدونس» إلى الآن، وقد أنجبت هذه الأسرة عدداً من الأساتذة والمحامين والأدباء.

هذا التصرف اللبق الذي صدر عن شيخ البساتنة في دمشق لا يمكن أن يصدر إلا عن دمشقي أصيل، فما عن عبث يقال فلان «مُدْمَشَق»، إذا كان كَيْشاً، لطيف المعشر، حلو الشمائل، لبق التصرف. كما يقال لمن يتعاضم ويتبجح «مُبْعَدَد» نسبة إلى بغداد. أما إذا كان أَلْغِيَان، كثير المكر والخداع، قيل عنه «مُدْمَيْط» نسبة إلى دمياط في مصر!

إنَّ البلاد تُضفي من صفاتها على أبنائها، فأعتدل الطقس عندنا، وجمال الطبيعة، جعل الدماشقة دَمِيثِي الأخلاق، لثني العربية، بعيدين عن العنف والقسوة، يؤثرون المجاملة والمصالحة.

قال أحد الشعراء:

إنَّ الهواء إذا رُقَّتْ مناسمُه

في بلدةٍ، لَطَفَتْ أخلاق أهلِها

من الشخصيات المرموقة في الحارة شخصية «الحلاق»، كانت دُكَّاته بمثابة ندوة يجتمع فيها الزبائن ويتبادلون الأحاديث. ومن مستلزمات مهنة الحلاقة أن يسلي الحلاق زبائنه، فكان يجمع الأخبار من سياسية وأجتماعية، وقضائحية، ونوادر، يرويها لزبائنه أثناء قيامه بعمله. وهذه العادة قديمة جداً عند الحلاقين، فقد ورد في كتاب «ألف ليلة وليلة» حكاية «مزَّين بغداد»، وهي تروي حكايات عن لسان حلاق ثرثار كان يرويها لزبائنه، وتعتبر حكاية «مزَّين بغداد» من أحلى حكايات الليالي.

ولعلَّ من أطرف الكتب التراثية وأهمَّها عندنا كتاب «الحلاق البديري»، وقد دوَّن «البديري» في كتابه هذا ما كان يُروى في دُكَّاته يومياً، فأستطاع أن يؤرِّخ لنا ما أهمله التاريخ في تلك الآونة، ويعطينا فكرة صادقة عن رأي الشعب في حُكَّامه آنئذٍ، وعن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في تلك الآونة.

ولا يقتصر الحلاق على قيامه بمهنة الحلاقة فقط، كان يمارس الطبَّ أيضاً، فكان يقطع الأضراس والأسنان، ويعالج اللُّوز، ويُقَصِّد الدَّم، ويقوم بالحِجامة، ويداوي القرعاء، ويبيع ديدان العَلَق... إلى آخره. لأنَّ أهل الحارة كانوا لا يذهبون للمعالجة عند الطبيب إلَّا في الحالات

المستعصية جدًا. ولا يعلم إلا الله كم كانت ضحايا هؤلاء الخلاقين...!

* * *

إنَّ ما ذكرتهُ من عادات وتقاليد الحارات الشامية القديمة، اقتصرت على بعض العادات المثبعة، وعلى ألتعاطف الودّي، والتضامن الاجتماعي الذي كان يشمل أبناء الحارة الواحدة. ولكن كان هناك أيضًا عادات وتقاليد كثيرة لا يتسع الوقت لذكرها، كالعادات المثبعة في الأعياد، والمولد النبوي، ومناسبات الحج والزفاف، والولادة والختان، والحمامات والخ... وقد ذكرت أكثر هذه العادات في قصصي القصيرة، وفي روايتي الطويلة «دمشق يا بسمه الحزن».

أعتقد أنَّ ما ذكرته لكم كان إيجابيًا كلّه، ولكن كان هناك أيضًا بعض السلبيات ولكنها تظلّ قليلة جدًا. من هذه السلبيات أنَّ ساكن الحارة لا يشعر أنه حرٌّ بتصرفاته أبدًا، بل كان يشعر دائمًا أنه مُراقب من أهل حارته جميعهم. مثلًا،

فلانة قامت البارحة لتؤدّي صلاة الفجر تصادف أنّها طلّت من الشبّاك فرأت جاراها الحاج «عبد اللطيف» يعود إلى بيته مع طلوع الضوء سكران طينه، حيّط يصنّده، وحيّط يرده.. في اليوم التالي يعمّ الخبز الحارة كلّها.

فلانة تخرج من بيتها كلّ يوم، والبارحة خرجت قبل الظهر،

وبعد الظهر أيضًا، إلى أين تذهب؟ أليس لديها في بيتها واجبات تقوم بها؟.. وبعد التقصي الطويل تبين لأهل الحارة أنها تعمل سرًا عند خياطة في حيٍّ آخر بالأجرة، لتعين زوجها الموظف الصغير ذا الدخل المحدود، والمتحدر من أسرة عريقة لا تسمح لنسائها أن يعملن بالأجرة، ويرتاح بال أهل الحارة من جهتها..

قالت إحدى الجارات لجارتها:

- أرايت؟ البارحة زار بيت جارنا فلان جماعة بينهم بنات وشباب مزنطرين (المزنطرين هم الذين يرتدون ثيابًا غير محتشمة، أو يقومون بحركات تنافي الآداب)، كان منظر هؤلاء المزنطرين، وهم يسيرون في الشارع، يَشْعِرُ منه البدن!.. ما علاقة جيراننا المحشومين الأودام هؤلاء المزنطرين؟..

تجيبها جارتها:

- ربّما سيخطب أبنتهم بنتًا مزنطرة، من اللواتي رأيناهن البارحة من الشباك، ويأتي بها إلى حارتنا، فتعلم بناتنا الزنطرة.

تجيبها جارتها أم البنات الخمس:

- كش بُرة ويعيد، يترك بنات حارته، المحشومات، الأودام، ويتزوج بنتًا مزنطرة!.. وتفكر قليلًا ثم تقول، لا يستطيع أحد أن يأتيها بالخير اليقين سوى الداية «أم إبراهيم». سأطلب منها أن تزورهم وتستنزهم بطرقها الخاصة حتى تعرف كل شيء...

في اليوم التالي تعود «أم إبراهيم» بالخير اليقين، وهو أنّ هؤلاء

الجيران الأوادم لهم أقرباء يسكنون في تركيا، وتركيا تحزرت من الحجاب قبل سوريا بسنواتٍ طويلة، وقد جاءوا من تركيا لزياة أقرباهم في دمشق.

ويرتاح بال أهل الحارة، لا سيّما أم البنات الخمس.

ومن السليّيات أيضًا «الكونة» ولا أدري مصدر هذه التسمية، فقد بحثت عنه في القواميس فلم أجد تفسيرًا لهذه الكلمة. أمّا المفهوم العامي لكلمة «كونة»، فهو أن يقوم فتيان الحيّ - أو بالأحرى المراهقون - بمهاجمة فتیان حيّ آخر، فيقذفوهم بالحجارة، والمقاليع، والنقيفات، ومن يهرب من المعركة يُعتبر مهزومًا.

ولا أدري كيف كان يقبل عقلاء الأحياء بمثل هذا التصرف الصبياني الخطر، الذي كان يؤدي أحيانًا إلى إصابات بجروح خطيرة قد تقضي إلى الموت!.. إلّا إذا كانوا يعتبرون أن «الكونة» نوعٌ من الرياضة، تعلم الفتیان الشجاعة والصبر على المكاره، والكُرّ والفِرّ، ولذة النصر، وتحاشي ذلُّ الهزيمة.

* * *

يبدو أننا كلّما أوغلنا في هذه الحضارة الجليلة الوافدة إلى بلادنا، شعرنا - على الرغم من التقدّم الحضاري المرموق - بفداحة بعض ما قلدنا من عاداتنا وتقاليدينا، فنزداد حنينًا إلى الماضي.

من أجل هذا كلّه راحت تصدر، في الآونة الأخيرة، كتبٌ كثيرة

تحدث عن دمشق الماضي، وعن العادات والتقاليد السائدة آنذاك، والتي تعبر عن الشعور الإنساني نحو الخير، وعن الشهامة والمروءة والنخوة، تلك الصفات الرائعة التي كانت تسود مجتمعنا الدمشقي القديم.

أذكر من هذه الكتب: كتاب «عاشها كلها» للدكتور «كاظم الداغستاني»، «يا مال الشام» للسيدة «سهام ترجمان»، «دمشق في مطلع القرن العشرين» «لحلمي العلاف»، «حديث دمشق» للأستاذ «نجاح قصاب حسن»، «الخروج من الجنة» للدكتورة «ناديا خوست»، «دمشق أيام زمان» للأستاذ «عادل أبو شنب»، «مقتطفات من تاريخ دمشق» للأستاذ «هاني الحثير»، «الله بمحرك يا حي الوردات» للأستاذ «جمال الفزأ»، وكتب السيد «منير كيال»... وغيرها، وغيرها...

هنا عدا عن الروايات، والقصص، والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية، التي تدور أحداثها أيام دمشق الماضي، كروايات «خيري الذهبي»، و«عادل أبو شنب»، و«سلمى الحفار الكزبري»، و«ناديا خوست»... وغيرهم، وغيرهم...

عسانا، إذا قرأنا هذه الكتب، أن نستعيد بعض هذه الصفات، التي تتلاءم مع الحضارة الحديثة التي أندفعنا فيها بلا هوادة...

المرأة والقيادة في الإسلام

أُلقيت هذه المحاضرة في «مكتبة الأسد»
بتكليف من «جمعية أصدقاء دمشق»، مساء ٤ - ٥ - ١٩٩٥.

المرأة والقيادة في الإسلام

إنَّ الذي دفعني إلى اختيار هذا الموضوع أمران، هما، كتاب الباحثة المغربية السيِّدة «فاطمة المرزيسي»، «السلطانات المنسيَّات في الإسلام، نساء رئيسات دولة في الإسلام»، وهو كتاب هامٌّ جدير بلفت النظر إليه، والحديث عنه.

وقد يقول قائل: لقد تجاوزنا هذه المرحلة، فما فائدة الحديث عنها؟.. وقد أصبحت المرأة المسلمة تتبوَّأ مراكز قياديَّة في كثير من الدول الإسلاميَّة، ففي وقتنا الراهن هناك ثلاث دول إسلاميَّة هي: تركيا وباكستان وبنغلادش، تتبوَّأ فيها المرأة أكبر مركز قياديٍّ في الدولة هو رئاسة الوزارة.

ولكننا لا نزال في أوَّل الشوط، عندنا، في سوريا مثلاً، ثلاثون وزيراً ووزيرتان فقط، وفي مجلس النواب مئتان وستة وعشرون نائباً، وأربع وعشرون نائبة فقط، مع أنَّ عدد النساء في سوريا قد يساوي عدد الرجال أو يربو عليه قليلاً. ولا ينطبق هذا على سوريا وحدها،

بل على جميع الدول النامية أو المتقدمة حضارياً، وقد تختلف النسب بين دولة وأخرى.

قلت في مطلع حديثي: إنَّ الذي دفعني إلى اختيار هذا الموضوع أمران، حدثتكم عن الأمر الأول وهو كتاب الباحثة المغربية السيِّدة «فاطمة المرنيسي»، وسنعود إليه لاحقاً.

أما الأمر الثاني، فمناقشةُ جرت بيني وبين سيِّدة مثقفة وجامعية أيضاً، وهي محببة توضع على وجهها حجاباً أسود كثيفاً جداً تكاد لا ترى طريقها من خلاله إلا بصعوبة، وترتدي جلباباً أسود عريضاً ينحدر حتَّى كاحليها، وقد ألبست يديها أيضاً قفازين أسودين، فكانت كتلةً من السواد من قمة رأسها حتَّى أخمص قدميها. وهي في اعتقادي تمثِّل نموذجاً من تيارٍ جارٍ راح يحتاج أكثر البلاد الإسلاميَّة، وبخاصَّة العربيَّة منها، ويحاول أن يفرض مبادئه على العالم الإسلاميِّ كما فهمها هو، وأحياناً بقوة السلاح، مع أنَّ ديننا الحنيف السَّمح يقول: لا إكراه في الدين.. ومن مبادئ هذا التيار أيضاً فرضُ مثل هذا الحجاب على المرأة لمنعها من المشاركة في شؤون بلادها مهما أوتيت من مواهب.

قلت لهذه السيِّدة:

- هل تعتقدين أنَّ المرأة في صدر الإسلام كانت تتحجَّب مثل حجابك هذا؟ وقد شاركت في الحروب القائمة آنذاك، تسعف الجرحى، تضمِّد جراحهم، وتحمل الطَّعام والماء إلى المحاربين، وبعض

النساء حملن السلاح.. ودافعن عن الإسلام: «نسيبة بنت كعب» كانت تدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيفها يوم أُحُد حين تخلى عنه كثير من الرجال، ولما أنتهت المعركة كان بها ثلاثة عشر جرحاً، وفي عهد «أبي بكر» رضي الله عنه أشتركت «نسيبة» في حرب اليمامة ضد «مُسَيْلَمَةَ الكَذَّاب» وجُرحت عدّة جروح، وقطعت يدها أيضاً، وقتل أبنتها، وكان «أبو بكر» رضي الله عنه يسأل عنها، ويزورها في بيتها بين حين وآخر. النساء اللواتي حاربن بالسلاح مع الإمام «علي» رضي الله عنه، أما كان منعهنّ من الحرب، ولو إلى جانبه ليبقين محجّبات، وهو أفقه فقهاء الإسلام؟..

أجابتنني قائلة:

- إنَّ للضرورات أحكاماً.

ثم قالت:

- سأروي لك حادثة لأرى رأيك فيها.

قلت:

- كلّي أذن صاغية..

قالت:

- لي صديقة تعمل على الآلة الكاتبة في إحدى الوزارات، وكان لها هذان رخصتان بَضَّتَان، وكانت تعني بهما، فتطيل أظفارها وتصبغها مزّة بالأحمر القاني ومزّة بالفتح أو البرتقالي، وتزّين أصابعها

بخواتم ملونة. وكان مكانها مقابلًا لمكان المحاسب، فقال لها مرة:
أرجوك يا آنسة أن تنتقلي إلى مكان بعيد عني، لأنني كلما رأيت
أصابعك الرشيقة تداعب الآلة الكاتبة ينشغل بالي فأخطئ
بالحساب، أنا الذي ما أخطأت في حساباتي أبدًا.

ثم قالت محدثتي:

- فما رأيك؟؟ لو لم يكن هذا الرجل صريحًا ومؤمنًا لكان أخطأ
في حساباته، وربما أُقيل من وظيفته وخُرب بيته بسبب فتنة المرأة!...

قلت لها ضاحكة:

- في اعتقادي أنّ هذه المشكلة هي مشكلة الرجل، وليست
مشكلة المرأة. لأنّ الرجل أعتاد أن ينظر إلى المرأة كأنّثى مُستهةة
فقط!.. هو لا تلفت نظره براعة هذه الأنسة في الضرب على الآلة
الكاتبة، إنّما يلفت نظره جمال ورشاقة أصابعها فقط لا غير!.. كان
الأجدر به أن يُغيّر هو مكانه فلا يطلب منها أن تُغيّر هي مكانها.

وتتداعى إلى ذهني، تلك اللحظة، حادثة طريفة تشبه هذه
الحادثة، جرت في أواسط العشرينات من هذا القرن، يوم كنّا في
المدرسة الإعداديّة، نشبت حينئذٍ معركة حامية في الصحف حول
الشُّفور، والحجاب. فسألْتُ إحدى الطّالبات أستاذ اللغة العربيّة،
وكان شيخًا معتمًا:

- ما رأيك يا أستاذ بقضية الشُّفور والحجاب؟؟..

أجابه بأنفعال:

— إنا كنْ يا بني أن يفتكُن هؤلاء المارقون الذين يذعون إلى
سفور المرأة.

ردّت عليه طالبة أخرى قائلة:

— لكن يا أستاذ قد تضطرّ المرأة إلى العمل لتُعيل نفسها إذا لم يوجد
من يعيلها، أو لتساعد زوجها أو أهلها إذا كانوا بحاجة إلى المساعدة.

قال متأففاً:

— توجد أعمال كثيرة خاصّة بالنساء: الخياطة، التطريز، تعمل
قابله، معلّمة أولاد، ممّوضة، هل تحسبن أن العمل في دوائر الحكومة
أمر سهل على المرأة؟؟..

قالت طالبة أخرى:

— توجد أعمال سهلة في كثير من دوائر الحكومة، تعمل في
الهاتف مثلاً.

فأبتسم بسخرية وقال:

— في الهاتف؟؟.. لو ذهبت أنا لأبعث برقية، ووجدت صبيّة حلوة
أعجبتي تبعث البرقيات، سأطلّ وأقفاً أمام هذه الحلوة، أستمتع
بجمالها، وأبعث برقيات إلى العالم، اخترع العناوين كما يخطر ببالي حتّى
ينتهي الدوام، فأكون قد عطّلت أشغالي، وأفلسيت جيبتي، وأخذت دور
غيري!!.. هذا الذي يأتي من عمل المرأة في الدوائر الحكومية!!..

وكان والله قد تجاوز الثمانين من عمره! حسبنا الله ونعم الوكيل من الرجل العربي. أتمنى، والله، لو يُبعث أستاذنا حيًّا ليرى كيف تعمل المرأة الآن إلى جانب الرجل في البنوك، والشركات، ودوائر الحكومة، والأمور تسير سيرها الطبيعي.

عدت إلى محلّتي فقلت لها:

- لا شك أنّك تقرئين القرآن بإمعانٍ ورويةٍ، هل وجدت فيه آيةً واحدةً تحرم على المرأة العمل إلى جانب الرجل، أو تحرم عليها أن تكون قائدة، أو ملكة؟

قالت:

- لا توجد آية صريحة تحرم ذلك، ولكن،

وأقاطعها أنا قائلةً:

- في القرآن الكريم حوارٌ جميل رائع جرى بين ملكة سبأ وشعبها، ولم يعلق عليه القرآن الكريم قط ... وكأنّ هذا الحوار يقول لنا، أو بالأحرى يثبت لنا، أنّ المرأة العاقلة الحكيمة أهلّ لأن تكون ملكةً تقود شعبها إلى ما فيه الخير والصالح.. عندما جاء طير الهدهد بكتاب النبي سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ، لم تلجأ تلك الملكة الحكيمة إلى وزرائها ومستشاريها وخلصائها، إنّما لجأت إلى الشعب كلّهُ، لأنّ القضية هامة جدًّا تتعلّق بأمن الوطن كلّهُ، فقالت كما ورد في القرآن الكريم: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي، مَا كُنت قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون﴾ صدق الله العظيم. والملاّ هم الرجال

الذين يملأون العين بعقلهم وتفكيرهم، وهم أهل للمشورة، أي كانت ملكة سبأ ملكة ديمقراطية، لا تستأثر وحدها بالحكم إنما تُشرك فيه الشعب كله ممثلاً بعقلاته ومفكره. أجابوها كما ورد في القرآن الكريم: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَبِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ، فَاَنْظُرِي كَيْفَ تَأْمُرِينَ﴾ صدق الله العظيم. كأنهم يشيرون عليها بالحرب. ولكنها كانت أكثر منهم حكمة وأبعد نظراً، فقالت: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ صدق الله العظيم، أي آثرت المصالحة، لأنها كانت تدرك قوة جيوش سليمان عليه السلام، ولما تركوا لها الأمر لم تغامر وتدخل في معركة لا تضمن نتائجها. أليس في هذا كله تمجيد للمرأة العاقلة الحكيمة التي هي أهل للقيادة. إِنَّ مِنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنْ يَعْطِينَا صُورَةَ حَسَنَةٍ دُونَ أَنْ يَعْطِيَ أَيَّ تَعْلِيلٍ بَلْ يَتْرَكَ لَنَا الْحُكْمَ عَلَيْهَا. وما كان لنا أن نحكم إلا كما أراد القرآن الكريم، لم يقل القرآن الكريم أَنَّ مَلِكَةً سَبَأٌ كَانَتْ عَاقِلَةً أَوْ حَكِيمَةً، لَكِنَّ الصُّورَةَ الَّتِي أَعْطَاهَا عَنْهَا تَثْبِيتٌ لَنَا هَذَا الْوَاقِعِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ كَلَامٍ يُقَالُ فِي هَذَا الْمَجَالِ. وأمثال هذه الشواهد كثيرة في القرآن الكريم؛ في سورة يوسف لم يقل أبداً أَنَّ يَوْسُفَ كَانَ جَمِيلاً بَلْ أَعْطَانَا صُورَةَ حَسَنَةٍ عِنْدَمَا دَعَتْ أَمْرَأَةَ الْعَزِيزِ النِّسَاءَ الْوَلَوَاتِي كُنَّ يُلْفَنَهَا وَيَتَحَدَّثْنَ عَنْهَا كَمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَأً، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا، وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْهِنَّ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ، حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ صدق

الله العظيم. هذه الصورة أبلغ من أيّ كلام يقال في الجمال المذهل.
ولكن محدثتي لم تقنعها حججي هذه كلها، المدعومة بآيات من
القرآن الكريم، فقالت:

- ورد في الحديث الشريف: لم يُفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة.

قلت:

- لا شكّ عندي أنّ هذا الحديث ممدسوس لأمر ما. ومن الذي
رواه؟؟ رواه الصحابي أبو بكر. وكان أبو بكر رقيقاً لسيد من
سادات الطائف، ولما حاصر الرسول صلّى الله عليه وسلّم مدينة
الطائف ثمّ فكّ الحصار عنها لأنّه أدرك أنّ اقتحامها يكلف المسلمين
ضحايا كثيرة، أعلن قبل أن يغادرها: إنّ كلّ رقيق يعتنق الإسلام
يصبح حرّاً. فهرب أبو بكره من سيّده وجاء إلى الرسول صلّى الله
عليه وسلّم وأعتنق الإسلام، وراح يعمل ويحدّ في عمله حتّى أصبح
ميسوراً، ولم يلبث حتّى أصبح أحد أعيان مدينة البصرة.

ولما قامت الحرب بين السيّدة عائشة والإمام عليّ رضي الله
عنهما، انحاز أبو بكر إلى الإمام عليّ، ثمّ روى هذا الحديث ضدّ
السيدة عائشة. وكان ذلك بعد وفاة الرسول عليه الصّلاة والسلام
بخمسة وعشرين سنة، فما أعظم ذاكرة أبي بكر لهذا!... وكان قد
سبق لأمر المؤمنين «عمر بن الخطّاب» رضي الله عنه أن أمر بجلد
أبي بكر ثمانين جلدة في ساحة عائّة لأنّه شهد شهادة كاذبة!

وعدا هذا كلّ كان لنبيّنا الكريم عليه الصّلاة والسلام نظرة

خارقة لا تخطئ أبدًا. لا يمكن أن يدلي بحديث تثبت الأيَّام عكسه،
إن في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

يقول مؤرِّخو بريطانيا العظمى: إنَّ العصر الذهبيِّ لبريطانيا هو
عصر الملكة فيكتوريا. إذاً قد أفلح البريطانيون حين ولَّوا أمورهم
أمرأة. قد يقول قائل: لم يكن الفضل للملكة فيكتوريا في إرساء
دعائم هذا العصر الذهبيِّ، إنما كان الفضل كلُّ الفضل للرجال
العظام الذين كانوا يديرون مملكتها المتراصة الأطراف... وقد فاتهم أنَّ
اختيار الرجال ليس بالأمر السهل.

لم أعد أذكر أين قرأت ذات مرَّة ما معناه: إنَّ أحد ملوك
الفرنجة بحث إلى «هارون الرشيد» رسالة يسأله فيها: كيف تدبر
مملكتك الكبيرة هذه دون أن تحدث فيها اضطرابات كتلك التي
تحدث في مملكتي الصغيرة؟.. كان جواب «هارون الرشيد» أربع
كلماتٍ فقط: أعرف كيف أختار رجالي. فوَضَعَ الرَّجُل في المكان
المناسب لهُوَ أمرٌ هامٌّ جدًّا، ويبدو أنَّ الملكة فيكتوريا قد أجادت إلى
حدٍّ بعيد اختيار رجالها. وقد كانت لها دائمًا الكلمة الأخيرة.

كذلك قد أفلح الروس أيضًا عندما تولَّت أمورهم «كاترين
العظمى»، التي تُصنَّف مع أعظم القياصرة الذين حكموا روسيا،
فقد أستطاعت أن تتغلَّب على المشكلات التي واجهتها وتنهض
بروسيا إلى مصافِّ الدول العظمى... هذا على الرغم من أنحلالها
الحقيقي المعروف!...

سميراميس ملكة بابل، التي يُعزى إليها إنشاء الحدائق المعلقة،
والتي الآن يُترنم بِأسمها ويطلق على كل ما هو جميل ورائع من
فنادق وحدائق وغيرها.

الفرعون «حتشبسوت» من أعظم فراعين مصر، يقول مؤرخو
تلك الحقبة، إنَّ عهدها كان عهد سلام ووثام ورخاء فأنصرفت إلى
العمران وأنشأت مَسَلَّتَيْنِ رائعتين في الكرنك، ومعبدًا لا يزال قائمًا
إلى الآن يشهد بروعة الفنِّ المعماريِّ المصريِّ في عهدها.. إذن قد
أفلح المصريون حين تولّت أمورهم امرأة.

الملكة كليوباترة ملكة مصر وقصّتها معروفة ومشهورة، أَسْرَعَتْ
أَنْتَبَاهَ كبار الأدباء «كشيكسبير»، و«برنارد شو»، و«أحمد شوقي»..

وقد أفلح العرب أيضًا حين تولّت أمورهم امرأة هي زنوبيا ملكة
تدمر، لم تصل تدمر إلى درجة من العظمة والتوسّع كما وصلت في
عهد زنوبيا، فقد شملت تدمر في عهدها شرقي آسيا، وسوريا، والجزء
الشماليّ من بلاد بين النهرين، ومصر أيضًا. وكبر - مع الأسف
الشديد - طموحُ الملكة زنوبيا حتّى جرّأها إلى الاشتباك بحرب مع
روما أكبر أمبراطورية حينئذٍ في المنطقة كلّها. ولما بدأت تنهزم لم
تستسلم أبدًا. آثرت الأسّتهاد أو الأسر على مذلة الاستسلام. لأنّه
عندما يُسَلَّمُ القادة بلادهم إلى العدو عن طواعية لم يعد لأهلها حقّ
فيها أبدًا، أمّا عندما تؤخذ عنوة يظلّ الحقّ قائمًا حتّى يأتي جيل قويّ
يستطيع أن يستردّ بلاده، ويعيد الحقّ إلى نصابه.

أستولى العرب على إسبانيا عنوة، ومكثوا فيها ثمانية قرون، وأنشأوا فيها حضارة ما زالت آثارها تبهل العالم إلى اليوم. ولكن عندما تفرقت كلمة العرب، وراح يحارب بعضهم بعضاً، أو يتحالف مع العدو ضد أبناء وطنه، ضُغِفت شوكتهم، وقويت شوكة الإسبان، فأستطاعوا أن يستردوا بلادهم، ويستأصلوا منها شأفة العرب بشتى أنواع الظلم، والتعذيب اللاإنساني، حتى لم يبق فيها عربي واحد إلا إذا تنصّر، وتبرأ من عرويته.

لم تكن المرأة في صدر الإسلام بمعزلٍ عما يجري حولها من أحداثٍ سياسيّة، وعقائديّة، وقوميّة، بل كانت تشارك فيها كلّها مشاركة فعّالة، لكن يبدو أنه كان هناك تعتيمٌ على ما يصدر عن النساء من بطولات من قبل المؤرّخين، يمرّون بها مرور الكرام، لا يذكرون منها إلا الهامّ جلتاً دون أيّ تعليق.

ورد في كتاب «مروج الذهب» للمسعودي أنّه عندما مات الحجاج وُجد في سجنه ثلاثون ألف امرأة!... لا شك أنّ في تاريخنا كثيراً من المبالغة، لكن لا نستطيع أن نرفض الخبر من أساسه. لو فرضنا أنه وجد ربع هذا العدد، أو ثمنه، لكان عدداً كبيراً يؤكّد لنا اشتراك المرأة في القضايا العاكة. لكن من هنّ هؤلاء النساء؟ ما أسماؤهنّ، لماذا سُجِنْنَ؟ لا نعرف عنهنّ شيئاً لأنّ هناك، كما قلت، تعتيمٌ على بطولات النساء.

ما غيّر الحجاج بن يوسف، ذلك الجبار العنيد، بالجين إلا لما

أقتحمت عليه غزاة الحرورية مدينة الكوفة، وكانت عليّ رأس جيش كبير يضمّ عددًا كبيرًا من النساء، قد أعتقن الرماح، وتقلدن السيوف، والحرب بالشفيف والرمح ليست بالأمر السهل كالحرب بالبندقية، لأنها تحتاج إلى تمرين طويل، وقوة عضلية، وشجاعة خارقة. لأنّ العدوّن يتقابلان وجهًا لوجه، والغلبة لمن كان أثبت جأشًا.

كانت عميرة زوجة مجاشع الخارجي ترى وجوب الاشتراك بالحرب، وكان زوجها يرى القعود عنها. فأضطرت عميرة أن تتخلّى عن زوجها وتلتحق بالمحاربين، وكتبت إلى زوجها تقول:

أبلغ مجاشع إن رجعت فإني
بين الأسنة والرماح مقيلي

ووهبت خنثري والفراش لكاعب
في الحيّ ذات دمالج وحجول

ضحّت عميرة بخدرها، بأعزّ ما تملك المرأة، ووهبت فراشها لمنافسة خطرّة في الحيّ ذات دمالج وحجول... وذلك كلّه في سبيل مبدأ تعتنقه.

جيء بإحدى الخوارج إلى زياد ابن أبيه، فقال لها:

- والله لأحصدنكم حصداً، ولأقتلنكم قتلاً.

فأجابته غير مبالية:

- إنّ القتل يزرعنا...

ما أروع هذا القول، وما أبلغه، وأصدقه!.. ألا ينطبق على أطفال الحجارة في يومنا هذا؟؟.. كلما قُتل منهم واحد يزداد العدد في اليوم الثاني. ولأما أستطاعوا أن يثابروا على حرهم الحجارة هذه ثماني سنوات، لأنّ القتل يورث الحقد الكبير، والحقد يدفع إلى الأخذ بالثأر مهما يكن الثمن باهظًا.

ولما همّ السّياف أن يضرب هذه المرأة الشجاعة بالسيف، سترت وجهها، فقال لها أبْن زياد،
- أتستترين وقد فضحك الله؟

أجابته غير مبالية:

- بل أنت الذي فضحت أمك، عندما أنتسبت إلى أبي سفيان
تكون قد أعترفت بأنّ أباك قد زنى بأمك!
ما أشجع هذه المرأة!... كيف أستطاعت أن تظلّ ثابتة الجأش
حاضرة البديهة، وهي في جفن الردى؟؟..

وقد شاركت المرأة العربيّة في الحروب الصليبيّة مُشاركة مرموقة.

ورد في كتاب الاعتبار «لأسامة بن منقذ» أنّ امرأة عربيّة من شيزر أستطاعت أن تأمر ثلاثة جنود صليبيين. أدخلتهم بحيلة دارها ثم أغلقت عليهم الباب وقفلته، ثم استنجدت بجيرانها فدخلوا البيت وقتلوه.

وإنّ امرأة أخرى قتلت زوجها، لأنّه ثبت لها تعاونه مع

الصليبيين على أبناء وطنه... ثم آحمت تلك المرأة بقلعة شيزر حيث يسكن الأمير «أسامة بن منقذ»، ويقول عنها ما معناه: كانت هذه المرأة تعيش معنا، وكنا نعاملها باحترام كبير.

وما من حادثة تشهد على وفاء المرأة العربية وبطولتها وتمسكها بعقيدتها كحادثة «عمرة بنت النعمان بن بشير». عندما قُتل «مصعب بن الزبير» زوجها «المختار الثقفي»، أراد مصعب أن يتهم المختار في دينه، فجاء بزوجه عمرة، وطلب منها أن تتبرأ من زوجها، وتشهد أنه كان مارقاً من دينه. وكانت عمرة ذات وفاء وعقيدة، فأبت أن تتبرأ من زوجها، فأمر مصعب أن توضع في حفرة ضيقة وأن يقف الشّياف أمامها شاهراً سيفه يهددها بالقتل، وينخزها بالسيف، وإلى جانبه وقف مصعب يحضها على أن تتبرأ من زوجها وتُمنّيها بعود مغربة، وهي تقول له غير مبالية بالشرّ الذي يحيط بها: كيف أتبرأ من رجل يقول ربّي الله؟ كان والله صائم نهاره قائم ليله، قد بذلّ دمه لله ورسوله. شهادة أرزقها ثم أتركها؟؟.. اللهم أشهد أبي متبعة لنبيك، وأبن بنته، وأهل بيته وشيعته، فيضربها الشّياف، وبعد ثلاث ضربات قوية ماتت عمرة باقية على عقيدتها، وفية لزوجها. وفيها يقول عمر بن أبي ربيعة:

إنّ من أعجب العجائب عندي

قُتلَ بيضاءَ حرّةً عُطبولٍ

قُتلت هكذا على غير مجرم

إنّ لله دَرهما من قتيلٍ

كُتِبَ القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جزُ الذبول

ليس عجباً ألا يوحى إلى هذا الشاعر وفاء هذه المرأة
لزوجها، وتُمشكها بعقيدتها، وشجاعته أمام التعذيب والموت،
شيئاً؟..

فلو لم تكن عمرة بنت النعمان هذه بيضاء عطبولاً، والعطبول
هي المرأة الفتية الجميلة الطويلة العنق، لما وجد الشاعر قتلها من
أعجب العجائب - ربّما لو كانت قبيحة لأجاز قتلها شرعاً، أو مدح
قاتلها بقصيدة عصماء! - وهذا الشاعر الذي يقول:

كُتِبَ القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جزُ الذبول

ما عُرف عنه أنه قاتلُ أبداً، ووجد في زمن كان القتال فيه لا
بهذا أبداً في سبيل الفتوحات، في سبيل السلطة، في سبيل العقائد،
ضدّ الظلم، وإلى آخره... عرفناه يجرّ ذبوله، وهو في أحسن هندام،
راكضاً وراء الحسنات، ليلاً ونهاراً، كما تشهد بذلك قصائده
الغزلية الرائعة التي أغنت أدبنا العربي في هذا المجال إغناءً مرموقاً،
ثمّا يجعلنا نفقر له مهما بدا منه!

وإنه لما أخذ كبير على أدبائنا القدامى الذين لم يمجّدوا في المرأة
إلا جمالها وفتنتها، أمّا بطولتها، ووقاؤها، وتمسكها بعقيدتها، فلم يوحِ

إليهم شيئاً إلا ما ندر. كأنه كان هناك تعظيم على بطولة المرأة من قبل الأدباء أيضاً، كما كان من قبل المؤرخين!

وإنها لمآثرة تذكر لأدبائنا المعاصرين الذين أخذوا يُمجّدون في المرأة بطولتها، وتضحياتها في سبيل وطنها، كما يُمجّدون هذه الصفات بالرجل تماماً. وإنّ ما كُتب عن «جميلة بوحيدة»، البطلة الجزائرية، من شعر ونثر لو بُعِث لشكّل كتاباً، وقد أُخرج عنها أيضاً فلم سينمائي. وما كتبه «غسان كنفاني» عن المرأة الفلسطينية، ممثلاً «بأمّ سعد» بطلة قصصه، يعطينا صورة مشرّقة جدّاً عن المرأة الفلسطينية، وغيره وغيره كثيرون... لقد أوردت ما أوردت على سبيل المثال لا الحصر.

كذلك ما كتب عن «سناء محيدلي» وزميلاتها، اللواتي قمن بعملاتٍ أنتحارية في سبيل الوطن، فقد ألقى مرّة الأديب «شوقي بغدادي» في «جمعية الندوة الثقافية النسائية» بدمشق، محاضرةً في هذا الصدد، ونظم قصيدة عن «سناء محيدلي» تُمجّد بطولتها، كان لها أجمال الوقع في نفوس السامعين.

ولو بُعِث هذا كله لشكّل أدباً خاصّاً جديراً بالدراسات.

لنعد، الآن، إلى كتاب الباحثة المغربية «فاطمة المرينسي»: «السلطانات المنسيات في الإسلام»، وهو كتاب هامٌّ جدّاً - كما قلت - وموثّق توثيقاً جيّداً. وتقصد المؤلفة بكلمة المنسيات اللواتي تناسى المؤرخون سيّزهنّ فلم يكتبوا عنها كما يجب أن يكتب، بل مزّوا بها مرور الكرام.

وقد أحصت المؤلفة في كتابها هذا، سيرة سبع عشرة امرأة مسلمة تَوَلَّين الحكم. وكان من شرعية الحُكْم آنذاك أن يُدعى للحاكم في الجوامع في خطبة الجمعة، وأن تُسَكَّ النقود بأسمه، وأن يُعترف به خليفة بغداد ويمنحه لقباً، وقد قُرِّنَ - هؤلاء النساء الحاكِمات - بهذه الشرعية، فكان يُدعى لهُنَّ في خطبة الجمعة، وتُسَكَّ النقود بأسمائهنَّ، ويعترف بهنَّ خليفة بغداد ويمنهنَّ لقباً.

ولنستعرض الآن سِيرَ أشهر هؤلاء الملكات بصورة مختصرة: اثنتان منهنَّ تركيتان من المماليك: «شجرة الدر»، وسيرتها معروفة أكثر من غيرها من الملكات، لأنَّ المؤرخين قد تحدَّثوا عنها كثيراً، وقد سَكَّت النقود بأسمها، وكان يُدعى لها بخطبة الجمعة. بهذه الصيغة: «أحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين، نعمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية، صاحبة الملك الصالح»، والقصد من كلمة «المستعصمية» هو اعترافُ منها بالولاء للخليفة العباسي المستعصم بالله.

ثم السلطانة «راضية» أبنة السلطان «إيلتوتمش» وكان أبوها رقيقاً لسلطان غزنة، وقد أرسله السلطان لغزو الهند فنجح نجاحاً مرموقاً، وبسرعة هائلة نَشَرَ الإسلام في الهند، ثم أحداً بالسلطان أن يزوجه من أبنته. ولما مات سلطان غزنة «قطب الدين إيبك» أعلن «إيلتوتمش» استقلاله في دلهي، ودام حكمه فيها ستاً وعشرين سنة. وكان قد أوصى بولاية العهد لأبنته راضية، وكان له ثلاثة أبناء ذكور، فأستغرب

أفراد حاشيته اختياره هذا، فكان جوابه: أولادي مشغولون بالخمر والنساء، أما أبنتي راضية فهي الجديرة أن تحكم بعدي.

وقد حكمت أربع سنوات حكمًا مطلقًا عادلًا. وقد دعي لها في خطبة الجمعة بهذه الصيغة: «عمدة النساء، ملكة الزمان، السلطانة راضية بنت السلطان شمس الدين إيلتوتмыш». وشكت النقود بأسمها أيضًا. كانت أول بادرة منها بعد أن تسلمت الحكم، هي أن رفعت الحجاب عن وجهها، وكانت ترتدي ألبسة الرجال، وتمتطي الحصان وهي مسلحة بقوس وجعبة، ومحاطة بحاشيتها. وكانت معاصرة لشجرة الدر.

وقد أنتهت حياة هاتين الملكتين بمأساة فظيعة، فقد قتلتا أغتيالاً بعد أن وصلتا إلى قمة المجد. ومن يرغب في التفاصيل الدقيقة فليرجع إلى كتاب السيِّدة «فاطمة المرينسي».

أما الملكات المنغوليات، فكان عددهنَّ ستَّ ملكاتٍ أشهرهنَّ - أو بالأحرى لأنها حكمت بغداد ثماني سنوات - هي الخاتون «تندو»، وكانت بارعة الجمال جدًا، أبة الملك «عويس» أحد أكبر ملوك المنغول الذين حكموا بغداد خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر. تزوجت الخاتون «تندو» زواجًا سياسيًا من الملك «الظاهر بريقوق» عاهل ممالك مصر، وكان الملك الظاهر يحبها كثيرًا. ولكنها لم تكن سعيدة في مصر لأنها كانت شديدة الحنين إلى بغداد، فطلقها «الملك الظاهر» وعادت إلى بغداد، ثم تزوجت من أبن عمها «شاه ولد» ملك بغداد آنئذٍ، ولما

مات تيؤأت العرش، وبقيت حاكمة بغداد ثماني سنوات، يُدعى لها في خطبة الجمعة من أعلى منابر بغداد، وسُكَّت النقود بأسمائها. ولما توفيت حلَّ أبناها محلَّها.

أما ملكات الجزر فعددهن سبع سلطانات منهن في جزر «المالديف» أربع ملكات في أندونيسيا، أشهرهن «السلطانة خديجة»، التي حكمت ثلاثاً وثلاثين سنة. كان يُدعى لها في خطبة الجمعة بهذه الصيغة كما رواها ابن بطوطة: «اللهم أنصر أمتك السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين بن السلطان صلاح الدين».

ويحدثنا الكتاب عن ملكتين عربيتين حكمتا اليمن، هما: «أسماء الصليحي» وكُنَّتها «أروى الصليحي». أسماء الصليحي حكمت اليمن مع زوجها «علي الصليحي» خمسة عشر عاماً، وكانت تجلس إلى جانب زوجها في مجلس الوزراء سافرة الوجه يُديران معاً شؤون المملكة، وكانت تُلقي خطبة الجمعة بأسميهما، وكانت تُلَقَّب بالسيدة الحرة، ويعني هذا اللقب، السيدة النبيلة الحرة، المستقلة، المرأة الحاكمة، التي لا تخضع لأي سلطة عليا. وقد ورد نص الخطبة الحرفي في كتاب السلطانات المنسيات بهذه الصيغة: «اللهم آدم أيام الحرة الكاملة كقيلة المؤمنين....».

ثم قتل «علي الصليحي» وهو في طريقه إلى مكة المكرمة مع زوجته أسماء، تعرَّض له في الطريق «سعيد بن نجاح» أمير ولاية زبيد، وهي الولاية الوحيدة في اليمن التي لم تخضع لحكم «علي

الصلحي وزوجه أسماء، وكان علي الصلحي قد أغتال أمير زيد بالسم بواسطة إحدى جواريه. فأستطاع أبنة سعيد بن نجاح أن يثار لأبيه بعد ترقب طويل، فيقتل قاتل أبيه علي الصلحي ويسجن زوجه أسماء، ويضع رأس زوجها على عمود أمام شباك سجنها.

وكان علي الصلحي قد جعل أبنة «المكرم» وليًا للعهد من بعده، ومنذ تسلّم هذا الحكم راح يستعد للأخذ بثأر أبيه، وإنقاذ أمه من سجنها. وكان قد سار على غرار أبيه، فأشرك زوجه أروى بالحكم، وهي أبنة عمه. فكانت تلقى خطبة الجمعة بأسميهما، وتُسك النقود أيضًا بأسميهما. ولما تمّ أستعداد الجيش سار المكرم على رأس هذا الجيش إلى مدينة «زيد»، فحاصرها مدة ثم دخلها منتصرًا، ففرّ القاتل سعيد بن نجاح إلى الصحراء، فلم يستطع المكرم اللحاق به، فراح يتحرى عن أمه في سجون زيد، إلى أن عثر عليها في أحد السجون في حالة مأساوية فظيعة، فأصيب من جرّاء ذلك بصدمة عاطفية، أدّت به فيما بعد إلى الفالج، فكانت زوجه أروى تدبر شؤون المملكة وحدها، وتلقى خطبة الجمعة بأسميهما، وبعد بضع سنوات مات المكرم فأصبحت زوجه أروى تحكم اليمن وحدها، وقد أمتدّ حكمها خمسين عامًا تلقى بأسمها وحدها خطبة الجمعة، وتُسك النقود بأسمها وحدها.

وقد أجمع مؤرّخو اليمن، القدماء منهم والمعاصرون، على أن عهد أروى كان عهدًا مباركًا على اليمن، ممّا حدا بأحد المؤرّخين

المعاصرين - هو «عبد الله التاور» - أن يحصي المشاريع الهامة التي نَفَذَها أروى خلال حكمها الذي أمتدَّ خمسين عامًا، كبناء الجوامع، وشقُّ الطرقات، وإقامة الجسور، وتنشيط المراكز الثقافية والدينية بمنحها العلماء والمُعلِّمين رواتبَ وافية، فكان أكثر مما نَفَذَ الأئمة مجتمعين خلال حكمهم الذي أمتدَّ ثلاثة قرون ونصف، وانتهى عند إعلان الجمهورية في اليمن عام ١٩٦٢ ميلادية.

وهناك أيضًا نساء حكمن بأسم الآبن ونجحن، كأُم «المقتدر»، حين أصبح أبنها خليفة وله من العمر ثلاث عشرة سنة، فكانت أمه تدبر شؤون الخلافة وقد نجحت في ذلك.

و«الحيزران» التي شاركت زوجها الخليفة العباسي «المهدي» في إدارة أمور الخلافة، فكان معجبًا بذكائها وحسن إدارتها، فلا يخالف لها رأيًا.

و«زهنب» زوجة «يوسف بن تاشفين»، كانت تشارك زوجها الحكم مشاركةً فعالة.

و«سُت الملك»، أخت «الحاكم بأمر الله»، التي أصبحت وصيةً على أبن أخيها القاصر عندما تولَّى الملك، وقد أدارت دفة الحكم في القاهرة مدة أربع سنوات إدارةً حازمة عادلة، بما جعل الشعب المصري يحبها، ويقدرها حقَّ قدرها، ويعتقد كثير من المؤرخين أنَّ «سُت الملك» هي التي دَثرت أغتيال أخيها الحاكم «بأمر الله» عندما أستفحل جنونه.

وبعد هذا كله ثبت لنا أنَّ المرأة المسلمة، عربيّة كانت أم أعجميّة، عندما أتيحت لها الفرص للتبوُّأ مراكز قياديّة نجحت نجاحًا مرموقًا في قيادتها، كالملكة أروى الصليحيّة، وخديجة بنت السلطان جلال الدين التي حكمت أندونيسيا ثلاثًا وثلاثين سنة، والحاتون تندو التي حكمت بغداد ثمالي سنوات وغيرهنّ وغيرهنّ. ونجحت المرأة أيضًا كقائدة جيش، «كغزاة الحروريّة» التي أخافت «الحجاج» ذلك الجبّار العنيد. أو داعية لعقيدة تعتنقها، كنساء الحوارج اللواتي كنّ لا يبالين بالموت في سبيل نشر مبادئهنّ ليقلدن الناس إلى ما فيه الخير والصالح حسب أعتقادهنّ.

والشواهد التاريخيّة على ذلك أكثر من أن تحصى...

يقول العلامة «سلامة موسى» في كتابه «تاريخ الثورات»: التاريخ علمٌ من حيث إنّه يروي الحوادث ويعلّلها في تتابعها. ولكنه يجب أيضًا أن يكون فنًّا من حيث استنباط العبرة، والبعث على القدرة، حين نستمدّ قوّة من الماضي إنما نغتصب بذلك قوّة أخرى في المستقبل.

مع أصاب
الدكتور كاظم الدانستاني

أُلقيت هذه المحاضرة في «المركز الثقافي العربي»
بدعوة من «جمعية أصدقاء دمشق»، مساء الخميس ٢٦ - ١١ - ١٩٩١.

مع أديب الدكتور كاظم الداغستاني

ما أمر الذكرى وما أعدتها
فهي بنت الصفاء والتكدي
وهي كالخمرة، كلما عتقت
طفحت باللذائذ الجُدد

رحم الله الشاعر الملمهم «فوزي العلوف»، صديق الدكتور «كاظم
الداغستاني» الحميم وزميله في الدراسة في الكلية الشرقية في مدينة
زحلة، لو أنه رحل عن هذه الدنيا بعد صديقه الداغستاني لقلت قال
هذه الأبيات في ذكرى صديقه كاظم..

حقاً كان رحيل الدكتور داغستاني عن هذه الدنيا مرّاً، بل
شديداً المرارة بالنسبة لأهله وأصدقائه وجميع معارفه، أما ذكره فقد
ظلت حلوة عذبة، كلما يتحدّ بها العهدُ طفحت باللذائذ الجُدد.. فما
من مرّة جاء ذكره في مجلس ما - وما أكثر ما يُذكر - حتّى بدأ
الأسف على الحاضرين لغيابه الأبدي عنهم، ولو أنه شارف التسعين

من عمره حين رحل عن هذه الدنيا. ثم راحوا يرُدُّون أحاديثه الممتعة، ويروون نُكْتَهُ الطريقة، وتعليقاته الذكية المحكمة، فلا يلبث أن يعمَّ المجلس جَوْ من المرح والبشر.. فما عرفت إنسانًا رحل عن هذه الدنيا، وظلَّ ماثلاً في الأذهان كأنه حيٌّ يرزق، مثل الدكتور «كاظم الداغستاني». فإذا تناوَل الحديث أدبه راحوا يُشيدون بهذا الأدب، ويؤكدون أنهم لا يملون من قراءته، ففي كلِّ مرَّة كانوا يكتشفون فيه شيئًا جديدًا، كما هو حال الفنِّ الرفيع الذي لا يُملُّ لأنه يتجدَّد دائماً أبداً.

من المؤسف أنَّ الدكتور داغستاني لم ينشر من أدبه إلا كتابين فقط، «عاشها كلها» و«حكاية البيت الشامي الكبير»، ثمَّ الأطروحة التي نال عليها شهادة الدكتوراه بعلم الاجتماع من جامعة السوربون في باريس، وإلى الآن لم تترجم إلى اللغة العربية، وما زالت تطبع في الجامعة إلى الآن لأنها تُعتبر مرجعاً في علم الاجتماع. وقد صُنِّفها بعض النقاد الأميركيين ضمن أحسن خمسين كتاباً صدرت عن الشرق الأوسط في النصف الأول من هذا القرن. أمَّا ما نشر من أدبه في كثير من الصحف والمجَلَّات، فقد ضاع أكثره، ومهما يكن الأمر فالأدب لا يُقيَّم بالكمِّ إلَّما بالكيف...

وقد نشرت مجلَّة «الثقافة»، مشكورة، التي يصدرها الأديب الشاعر «مدحة عكَّاش»، ملفاً عن الدكتور «كاظم الداغستاني» عقب وفاته، وقد أشرف على هذا الملف أديبنا الكبير الأستاذ

«عبد المعين الملوحي» مدّ الله في عمره، فجمع من مكتبة الداغستاني ما أستطاع جمعه من مقالات وأحاديث، وقصص قصيرة، وشعر منشور، كانت قد نُشرت في كثير من الصحف والمجَلّات. فنشر الأستاذ الملوحي بعضها في الملفّ، وأشار إلى بعضها الآخر وإلى الصحف التي نُشرت فيها، كما كتب موضوعاً عنوانه «الدكتور العلامة كاظم الداغستاني».

وقد شارك في هذا الملفّ أيضاً صديق الداغستاني الحميم المحامي الأستاذ «نجاح قصاب حسن» بموضوع عنوانه «كاظم الداغستاني البساطة والعمق». وعلى ذكر الأستاذ «نجاح قصاب حسن»، فقد قرأت له منذ مدّة وجيزة، حديثاً نشره في الزاوية التي يكتبها في جريدة «الثورة» يقول فيه عن الدكتور كاظم: «هو في نظري أكبر كاتب دمشقي عرفه العصر الحديث».

لقد عبّر الأستاذ نجاح عما لم أجزؤ أنا على الجهر به، خشية أن يُطعن في شهادتي، لأنّ الدكتور داغستاني خالي وشهادة الأهل يُطعن بها غالباً. وكان من واجبي أن أشارك أنا أيضاً في هذا الملفّ فنشرت فيه موضوعاً بعنوان: «خالي الدكتور كاظم الداغستاني شخصية لا تُنسى».

وقد تبين لنا، من هذا الملفّ، أنّ الدكتور داغستاني قد مارس أكثر أنواع الأدب، كتب المقالات الفكرية والثقافية، والنقد الأدبي والاجتماعي، والقصة القصيرة، والرواية الطويلة، والشعر المنشور،

كما مارس الترجمة عن اللغة الفرنسية، وكتب السيرة الذاتية، فكتبه «عاشها كلها» ما هو إلا سيرة ذاتية، ولكنها تختلف عما ألفناه من السير الذاتية الأخرى. فهو لم يكتب سيرة حياته منذ وُلد حتى كتابة السيرة، إنما أنتقى منها مختارات قد تهتم القارئ لأن لها علاقة بالبيئة الشامية الدمشقية فهي ذات قيمة وثائقية هامة، أو تمتع القارئ بفنّها الأدبي الرفيع. يصف فيها شعور شاب يخادر لأول مرة دمشق البلد الشرقي المتزمت في أواسط العشرينات من هذا القرن إلى «باريز» مدينة الثور والحرية، فيحلتنا عن الملابس والأحداث الطريفة التي وقعت له في هُوِه وجدّه، وعن الشخصيات الهامة من أجنبية وعربية تعرّف بها هناك ونشأت بينه وبينها مودة حميمة نَجَمَ بها طويلاً، وتنتهي سنوات الدراسة، ويعود إلى بلده دمشق وبه حنين ملح إلى زيارة «باريز» بين حين وآخر، ولكن لم يُتيح له أن يحقق رغبته الملحة هذه إلا بعد خمس وعشرين سنة أي في أواخر كهولته، وما أطرف حديثه عن الفارق الكبير بين الزيارتين، بين نزوات الشباب، ورضانة الكهولة بأسلوب شائق جذاب من السهل الممتنع، يستأثر بالقارئ فلا يحب أن ينصرف عنه إلا مرغماً.

* * *

وبما أن عنوان أمسينتنا اليوم «مع أدب الدكتور كاظم الداغستاني»، فإنه يطيب لي أن أقرأ لكم بعض مقاطع من فصل

عنوانه «الولع الأول»، وهو أول فصل في كتابه «عاشها كلها»، يصف فيه كيف عرف الحب أول مرة، وكان إذًا فتى يافعا، لم يمر بتجربة الحب بعد، وتصادف أن زارت أسرته زوجة أحد أنسابه لتمضي مع شقيقاته صديقاتها بضعة أيام ينعمن خلالها بالجو الربيعي في حديقة الدار الواسعة في حي الصالحية، وكانت هذه السيدة تُسفر عن وجهها أمامه لأن زوجها أخوه بالرضاع، وكانت تصطحب معها أختها الصغرى، فما كادت هذه تراه حتى حاولت أن تُسدل برقعها الأسود على وجهها، لكن أختها الكبرى قالت لها: إنه من الأقارب، وأنه لا يبرح صبيًا لا حرج من سفورها أمامه، لا سيما وهي صبيّة أيضًا وحديثة عهد بالحجاب.

ووقفت معه، وراح يتحدث إليها وتحدث إليه، ورأى حينئذ - كما لم يَر من قبل - هيفاء، سمراء، كحلاء، ولا أروع، برّقت في عينيها السوداوين أشعة قوية أخّاذة، تنعكس على وجه ناحل تهدّت فيه مسحة من رصانة فائنة.

لم يعد يذكر ما قاله لها لأول وهلة، فقد كان مأخوذًا مبهورًا لا يدري أي شعور هذا الذي أستولى على نفسه، وغمر كيانه، ولعله كان مزيجًا من خشوع ورهبة. لقد كان الحديث بينهما متقطعًا، لا يشبه حديث الصبايا والصبيان حين يتلاقون، بل حديث السجناء الذين حبسوا في حجرات منفردة مظلمة وقد ألتقوا

منطلقين على غير موعد، وفي وضّح النهار، تأخذهم الدهشة، ويبهّر
النور أبصارهم.

قالت عائشة لأختها، التي جاءت لتزور الأسرة لبضعة أيام،
- سأعود الآن إلى بيتنا، وسأرجع صباح الغد إلى الصالحية.

قالت ذلك وهي تبتسم له، وتحتويه بنظرة حنان تثير في أعماقه
خلجات وخفقات ما عرفها من قبل.

وتغادر عائشة الدار مع خادمة لها.

وبمضي هو نهاره وحيداً، لا يكلم أحداً، تمرّ به هنيهات
لا يعرف كنهها أو مداها أو مدتها، تغمره بشعور من الغبطة،
وتلغ بغلالات رقيقة شفافة من النعماء، هنيهات العمر... عرف
ذلك فيما بعد. إنهنّ ممّا يتّصل بالملأ الأعلى، فيصبحن، وهنّ
يندجن في هويلاته، نعيمًا سرمدًا لا تحسّه وفيما ندر إلا نفوس
برينةً استحالّت إلى أرواح مجرّدة. كان يشعر أنّ نظرتّه آتت إلى
جميع ما حوله، نظرةً محبّة شاملة، فهو يحبّ كلّ ما يرى؛ النهر،
الزّرع، الشجر، وجميع هؤلاء النسوة من سكان الدار وضيوّفها،
وكل مخلوق رآه وسوف يراه. لقد أحسنّ في أعماقه - كما يذكر -
أنّ الحياة لا أجل، ولا آلف، ولا أطرب على قلبه، إنّهُ يبحثُ حبًّا
جَمًّا، يخيّل إليه أنّه سبقه قبل مولده ليفرش له هذه الدنيا بساطًا
مخملًا سندسًا...

وكان موعد ولقاء مع من يحب...

ويستمر الحب بين العاشقين الصغيرين سنين طويلة، لا يجتمعان خلالها إلا مصادفة، ولكنهما كانا يتبادلان الرسائل بواسطة إحدى قريباتها، ويعبران في هذه الرسائل عن حبهما الذي يزداد رسوخاً على مرّ الأيام. ولما أَسْتَوَى الفتى اليافع شاباً يستطيع أن يتحمل مسؤولية الزواج تقدّم إلى طلب يد الحبيبة من ذويها. وما كان أشدّ دهشته، وخيبته أيضاً، حين رُفِضَ الطلب. وكانت الأعداء الماتعة واهيةً جدّاً، منها هذه الصلة التي قامت بين الخطيبين في الخفاء وقد شاع خبرها بين الناس! وأما السبب الحقيقي فهو أنّ الفتاة كانت يتيمّة الأبوين، وقد ورثت عنهما ثروة لا بأس بها.

يقول خالي،

وكثيراً ما كانت ثروة الفتيات، في هذا البلد الذي نعيش به، وبالأعلى عليهنّ، حينما يعمد القوامون عليهنّ من الرجال فيحرصون على إبقاء هذه الثروة في الأسرة، أو يتلبّثون الأمر فيمنعونها عن سواهم من الأصهار، لكي يحتفظوا بها فيورثوها أولادهم من بعدهم!... وكثيرات في البيوتات الشاميّة الكبيرة من هنّ مثيلات عائشة، تحسن في قماقم قديمة مرصودة صنعت من فضة محلّاة بالذهب، ولكنها كانت محكمة الإغلاق، لا يستطيعن كسرها أو الإفلات منها!!!..

لقد جَزَعَتْ عائشة كثيرًا، وبكت كثيرًا، من هذه النهاية الدرامية التي آتتهن إليها حثهما العميق، فبعثت إليه تقول إنه ليس بإمكانها أن تتور، أو تتمرد كما يُطلب منها، وليس بمقدورها إلا أن تدعن لمشيئة القدر، فهي حريصة على سمعة الأسرة، لا تستطيع أن تخرج على التقاليد السائدة في هذا البلد.

ولأنه ليستغرب الآن، ويعجب كثيرًا، مشفقًا على نفسه حتى الحزن، حينما يتذكر كم كان وقع ذلك الفشل عظيمًا على نفسه!

لم يكن يعلم بعد أن الرغبة هي كل شيء، فإذا تحققت لم يبق شيء...
* * *

كان الدكتور داغستاني من أوائل الكتاب والمفكرين الذين نادوا بحرية المرأة، وإعطائها حقوقها كاملة، وكان هذا - في أوائل العشرينات من هذا القرن - يعتبر شجاعة لا يُقَدِّم عليها إلا الجسور من الكتاب، لأنه ربما تعرّض إلى النقد الشديد، أو إلى الإهانة والأذى من بعض المتعصبين المتزمتين. وقد نُشِرَ، في أوائل الثلاثينات، كلمة في مجلة «الثقافة» - التي كان يصدرها مع الدكتور «جميل صليبا» والدكتور «كامل عياد» والأديب الأستاذ «خليل مردم بك»، وكانت من أرقى المجلات الثقافية التي عرفتها سوريا - الكلمة التالية موجهة إلى المرأة العربية، وعنوانها «أيتها الضعيفة».

ولعلّ فشله من ولعه الأول هو الذي أوحى إليه بها، وسأقرا لكم
مقاطع منها؛

أيتها الضعيفة تشجعي، فقد آن لهذا الليل أن ينجلي
ولا يروعتك بأس هؤلاء الأقوياء الغاشمين الذين ما
أحبوا فيك إلا نفوسهم.

إن قواهم أوهى من أن تحجب النور، وإن ظلمهم
أضعف من أن يقف في وجه الحق طويلاً.

أيتها الضعيفة تشجعي، فقرة الإيمان أعظم القوى.
يكفيك أن تؤمني أنك مهزومة الحق وإن القوم من
ذويك ظالمون.

أيتها الضعيفة أستاذي، فلثاب الحى جياح.
لقد أنزلوك منزلة السلع، فلم يزغوا لك ذقة، ولم
يحفظوا لك عهداً.

لقد كذبوا على الله، فتناشوا لباب الدين، وأخذوا من
قشوره حبالاً يخنقونك بها.

لقد فهموا الشرف كما أرادوا، لا كما يفهمه الحق
والعدل.

وإنهم ما برحوا يُغضبون الله ويعصونه، فينسيون ذلك
إليك.

ويرتكبون الجرائم للتحكم بك، زاعمين أنهم
ما ارتكبوها إلا للدفاع عنك.

ويسمحون لأنفسهم مُفَاخِرِينَ بِكُلِّ مَا يَحِبُّونَهُ عَلَيْكَ،
وَيَرْمُونَكَ بِهِ.

أَيْتَهَا الضَّعِيفَةُ أَسْتَبْسِلِي، فَالْحَرِيقَةُ لَا يَنَالُهَا إِلَّا طَالِبُهَا.
وَالْمَجْدُ لَا يُحْرِزُهُ إِلَّا الْجَسُورُ الْمُقْتَحِمُ.

وتمضي فصول الكتاب منسجمة مع بعضها، يحدّثنا فيها عن
دمشق في أوائل القرن العشرين، عن العادات والتقاليد السائدة
آنذاك لا سيّما في حيّ، «حيّ الصالحية»، الذي كان يُعتبر من
ضواحي دمشق، وكثيرًا ما كان يقصده الدمشقيون للتنزّه لأنه قائم
على سفح قاسيون، ومشرف على دمشق وبساتينها الخضراء آنئذٍ،
تحيط بها الغوطة بأشجارها الكثيفة الوارفة.

* * *

في الكتاب أيضًا فصل طريف عنوانه «هواية الأسراب الطائرة»
أي «هواية تطيير الحمام»، الهواية التي كانت شائعة في دمشق،
وبخاصّة في «حيّ الصالحية»، وكان المؤلّف من هوايتها أيضًا، عندما
يصف لنا الطيور الأصلية الخارقة تحسبه أحد تجّارها العارفين
بصفتها، وخصائصها، وأسمائها المتعدّدة، ثم يحدّثنا عن التقاليد
السائدة بين «كشّاشي الحمام» - كما كنّا نسمّيهم - وكأنّها قواريث
لا يجوز خرقها أبدًا.

وفي هذا الفصل من الكتاب يروي المؤلّف قصّة قصيرة رائعة

عنوانها: «الأبلىق المشؤوم»، وقعت فعلاً أثناء الحرب العالمية الأولى وكان المؤلف من شُهود هذه القصة. فراح يصوّر لنا فيها إلى أيّ مدى قاست بلادنا من العنت والظلم إبان هذا الحكم التركيّ الجائر الذي امتدّ أربعة قرون كاملة.

ملخص القصة هو:

كان أحد أبناء حيّ الصالحية، وأسمه «حليم ملكة»، رجلاً طيباً يحبّه جميع أهل الحيّ لدمائته وحسن خُلُقهِ، وكان من هواة تطيير الحمام، وكان مجتهداً، أعتاد أن يصحو باكراً يُطَيّر السّرب ثم يعيده إلى أوكاره، ثم يُسرّع إلى ثُكُنته، يُقَيّد أسمه ثم يذهب إلى الوظيفة التي أناطوه بها لأنه غير صالح للحرب.

وذات مرّة عاد السرب دون أن يعود معه «الطارد»، وهو الطائر الذي يقود السرب، والسرب يتألّف عادة من الطيور الذكور فقط، ليس بينهم أنثى واحدة كي لا تثير البلبلّة في السرب. وكان هذا الطارّد طيراً أبلق من الطيور الأصيلة الخارقة، يقدّر ثمنه بلميرتين ذهبيتين، وكان هذا المبلغ يُعتبر كبيراً في ذلك العهد. فما كان من «حليم ملكة» إلّا أن طيّر سربه مرّة ثانية عسى أن يعود معه الأبلق الشارد. ولم يعد الأبلق أيضاً، فما كان من «حليم ملكة» إلّا أن أعاد السرب إلى أوكاره، وأسرع إلى ثُكُنته فقد تأخّر عن ميّعاده بضع دقائق، ولم يسبق له أن تأخّر عن ميّعاد وظيفته دقيقة واحدة.

ولكن، من سوء حظّه، جاءت هيئة التفتيش أثناء غيابه،
وقيّدت أسمه بين «الفاّزين»، وكان القانون الساري آنذاك هو أن
تُقرّر أسماء الفاّزين إلى عشرات، ثم يؤخذ بالقرعة واحد من كلّ
عشرة مجنّدين ويعدم فوراً عند إلقاء القبض عليه، دون أيّة محاكمة
أو أيّ سؤال أو جواب! وتقع القرعة على «حليم ملكة» الذي
وصل في تلك اللحظة، فما كان منهم إلّا أن أخذوه فوراً إلى
ساحة المرجة، وأعدم شنقاً، وكان إعدامه مأساةً حزنَ لها حيّ
الصالحية حزنًا أليماً.

وبعد ثلاثة أيّام عاد الأبلق إلى سربه، بعد أن كان السبب في
إعدام صاحبه. ولمّا أراد أهل «حليم ملكة» بيع السرب لم يرَضْ أحدٌ
أن يشتري الأبلق الخارق، لأنّ كشاشي الحمام اعتبروه طائرًا
مشؤومًا.

في الكتاب أيضًا فصل بعنوان «هو الصبا والشباب»، لعلّه من
أحلى فصول الكتاب، يبدأه المؤلّف بمقدمة يقول فيها:

لقد كانت تلك الأيّام قاتمة اللون كما يذكرها، تكاد تكون
مفعمةً بالكآبة والحيرة، قطعها صاحبنا بين أهله وهو يستقبل
شبابه وجلاً، متردّداً، وكأنما هو يفتّش عن نفسه فلا يجدها، وإذا
وجدها موزة ألفها مضطربة تكاد لا تعرف ما تتغي ولا تدرك
ما تريد...

ويا لأيّام المراهقة، وبوادر الشباب التي تليها، ما أقساها على

النفوس الفرحة المرحّة، حينما لا تجد ما يملأ هذا الفراغ الذي خلّفته نزوات الحياة كما أسماها «برغسون»، في نواح كثيرة من نواحي القلب والروح والعقل!

ويا للتعنّت والظلم اللذين كان يلقيهما المراهقون، وهم يستقبلون مطلع شبابهم، الذي كان من حقّه أن يلهو، وكان من حقّه أن يمرح ليستطيع بعد ذلك أن يجتهد ويعمل!

يا لتزوّت أولئك اللعين كانوا قد ودّعوا الشباب إلى غير رجعة من الكهول والشيوخ، فدعاهم الحقد لأن يطلبوا من هذا الشباب بعدئذٍ أن يكون وقارًا خالصًا، لا هزل ولا مرح معه، وجهدًا مضنيًا لا هو ولا راحة فيه، وتشمل قسوتهم هذه الصبايا والفتيان على حدّ سواء..

ولم يكن هناك، كما يذكر صاحبنا، ما يمكن أن يسمّى أمكنة لهُو سوى نوعين اثنين من الأمكنة، يُحظر على غير الرجال ارتيادها حظرًا شديدًا، أوّلها ما يسمّى «خيمة كركوزه»، وهو خيال الظلّ الذي كان شائعًا في كثير من بلدان الشرق الأوسط، وثانيهما ما يسمّونه «التياترو»، ويُراد به مسرح الغناء والرقص، يضاف إلى ذلك بعض فرق التمثيل التي كانت تَقْدُ إلى دمشق من مصر، فتقوم بتمثيل بعض المسرحيّات من حين لآخر، ثمّ لا تلبث أن تغادرها إلى غيرها من البلاد العربيّة، يضاف على هذا أيضًا مسرح «الكباريه»، الذي كان أجنبيًّا غربيًّا بكلّ ما فيه الفئانات، والموسيقى، والرقص، والشراب، والطعام أيضًا.

ويعصف لنا بعض فصول «كركوز» التي كان فيها نقدٌ لاذع للمجتمع، والحكم أيضًا، ولكن من طرفٍ خفيٍّ، وعلى ذكر «كركوز» وعيواظ، كان خالي بارعًا جدًا في تقليدهما، وكنا نمضي سهراتٍ عائليّةٍ طويلة وهو يقلّد لنا بعض فصولهما وكأنه «كراكوزاتي» محترف... لأنه كان بارعًا في التقليد وفي التحكم في صوته، وفي اعتقادي لو قُدِّر له أن يمارس التمثيل لكان له فيه شأن كبير.

أما حين نقرأ وصف المسرح، و«الكباريه»، يخيّل لنا أننا نعيش تلك الأحداث كلّها كما عاشها المؤلف لبراعة الوصف، ودقّة الملاحظة، وسلاسة الأسلوب الشائق، وحيويّته، أو كأننا نشاهد هذه الأحداث في مسلسل تلفزيونيٍّ يمثّل أمامنا.

في الكتاب أيضًا ثلاث رسائل موجهة إليّ تشكّل في الكتاب فصلًا كاملاً، كان خالي قد أرسلها إليّ عندما كان في «معزة النعمان» يشغل فيها وظيفة «قائم مقام»، ولما ألّف كتاب «عاشها كلّها» أسرّدها منّي ونشرها في الكتاب بعد أن حذف منها الأشياء الخاصّة كالسلامات والسؤال عن صحّة كلّ واحد منّا بمفرده. لهذه الرسائل قصّة أحبّ أن أرويها لكم الآن:

كان ذلك في أوائل الأربعينات من هذا القرن، جئت مرةً أزور خالي وقد حملت له مجلّة كنت قرأت فيها بحثًا قيّمًا عن الوحدة العربيّة، وكنا دائمًا نتبادل الكتب والمجلّات. قدّمت إليه المجلّة، وقلت له:

.. قرأت هنا موضوعًا عن الوحدة العربية أعجبنى كثيرًا فأحببت
أن تقرأه أنت أيضًا.

قال لي بلامبالاة، مشيرًا بيده:

.. أنا لا أهتم بمثل هذه المواضيع السابقة لأوانها، لأنه لا جدوى
منها الآن.

قلت مستغربةً مندهشة:

.. ماذا تقول؟ موضوع الوحدة العربية لا جدوى منه؟ وهو
أهم المواضيع التي يجب أن نفكر بها دائمًا وأبدًا، وفي كلِّ زمان
ومكان، هي الحلم الذي عاش عليه أجدادنا وآباؤنا وسيتحقق إن
شاء الله في عصرنا هذا. إنَّ فيه خلاص أمتنا العربية من كلِّ
ما تعالي..

فقهقه ضاحكًا وقال لي:

.. كم أنت متفائلة.. أنصحك ألا تشغلي فكري بمثل هذه الأمور
التي لا فائدة منها الآن، يجب أن يعالج كلُّ قطر عربي مشاكله
الخاصة وينال استقلاله التام، ثم هناك عدَّة وحدات يجب أن تتم
قبل الوحدة العربية.

قلت نافذة الصبر:

.. وما هي، ما شاء الله، هذه الوحدات؟

قال:

- وحدة اأقتصادية بين البلاد العربية، ووحدة ثقافية، وأجتماعية، ووحدة أهداف وإلى آخره.. وبعدئذ نفكر بالوحدة العربية وربما جاءت هي نفسها تسعى إلينا.

قلت، وأخجل الآن من جهلي الفاضح، كان ذلك منذ خمسين عامًا،

- هذه الوحدات كلها يمكن أن تتم بعد الوحدة العربية!

قلت ذلك، وكأنتني نسيت، أو تناسيت، أنني أتحدث مع دكتور في علم الأتتماع، يُرجع إليه في مثل هذه الأمور. قال،

- لن أأدخل معك في جدال لا جدوى منه على ما أرى، بل أعود وأنصحك ألا تشغلي نفسك بقراءات لا فائدة منها.. فأحتدمت غيظًا وقلت دون تفكير، وكم أشعر الآن بالندم على ما بدر مني؛

- هذا النصيح لا يأتينا عادة إلا من غير العرب!

قلت ذلك منددة بخالي، لأنه من أصل غير عربي، فهو من أب داغستاني وأم عربية سورية، ففهم قصدي، فتحول وأمتعض وجهه، ونظر إليّ بترفع وإشفاق دون أن يجيبني بكلمة واحدة. قلت له ذلك مدفوعة بحماسة هوجاء رعاء، قد تُعمي البصر والبصيرة وتؤدي بنا إلى فكرة ثابتة تتمركز في أعماقنا لا نستطيع أن نحيد

عنها أو نقبل النقاش فيها، والفكرة الثابتة حالة مرضية كما يقول علماء النفس ويبدو أنني آبتليت بهذا إلى حين.

وقمت وأنصرفت إلى داري، وأنا أشعر بحزن عميق لأنّ خالي، العزيز عليّ جدّاً، لا يؤمن بالوحدة العربية ولا يتحمّس للعروبة مثل أمي مثلاً، أخته الكبرى، التي أَرْضَعته مع أحد أولادها، والتي كانت أكثر حماسة لكلّ شيء عربيّ من أيّ واحد في أسرتنا، وعندما خرج «الملك فيصل» من دمشق مخلوعاً ظَلَّت أُمّاً تبكي وكأنّها قد فقدت عزيزاً عليها.

وبعد مدّة قصيرة سافر خالي إلى «معزة النعمان» حيث وُظِفَ «قائم مقام» لتلك المنطقة، ومن هناك وجّه إليّ هذه الرسائل الثلاث، بُتِيت لي فيها، بكثير من اللباقة واللفظ، وبطريقة غير مباشرة، انتماءه الكامل إلى الأمة العربية، واعتزازه الكبير بوطنه سوريا وحبّه العميق لبلده، ومسقط رأسه، دمشق الفيحاء.

يقول في إحدى هذه الرسائل؛

وما المعزي، والكِندي، والقاراني، وأبن سينا، وأبن رشد، وغيرهم الكثيرون إلّا من أولئك العباقرة الذين أنبتهم، أو أنشأهم، وربّتهم من بعد تربتنا هذه المعطاء المتنّاف التي كانت وما برحت قدس الأقداس. وليس في الدنيا - كما أرى - أرضٌ كسوريا، وما جاورها من بلاد، جذيرة بأن يؤمّها الناس، ورواد الأوابد من جميع أنحاء الدنيا، ليزوروا عوالمها، ويتفقّدوا أطلال مُدُنّها القديمة، وخرائب

عواصمها التي أنشأت أعظم ما أنتجته للناس قوة العقل والفكر.
وترون أنه تعمّد أن يأتي بأسماء عباقة من أصول عربيّة خالصة
كـ «المعري»، و«الكتندي»، و«أبن رشد»، وآخرين من جذور غير
عربيّة مثل خالي تمامًا ولكنهم عرب بالانتماء كـ «الفارابي»، و«أبن
سيناء»، لأنهم تتقّفوا ثقافة عربيّة، وكتبوا باللغة العربيّة، وتدبّنوا
بالإسلام الذي أوحى به الله إلى عبده العربيّ مُحَمَّد بن عبد الله
صلّى الله عليه وسلم، فأنبثق الإسلام من الجزيرة العربيّة.

وفي رسالة أخرى عن أبي العلاء، يقول:

ليست واحدة من معجزات الشرق العربيّ أن تفيض روائع
الحِكم القائمة على الفلسفة الحقّ يطلقها، من كان «رهين
المحبسين»، شعرا ما أستطاع مجاراته فيه شاعر من بعد؟ أوليس من
مفاخرنا - نحن العرب - أن يتباهى الغربيّون خلال أعصر طويّلة
«بدانتي» صاحب الكوميديا، ثم يأتي الراهب «آسين بلاسيوس»،
عملاق المستشرقين، فيشهد والأدلة تقسم عنه، أنّ ما أتى به
شاعرهم ما هو إلا ومضة من ومضات شاعرنا «المعري»؟

وعندما يتحدّث عن أفاميا يقول،

ومن يدري؟ لعلّ أطلال أفاميا، وأنقاضها، وأتريتها، ما برحت
تحمل في أحشائها تحفًا كثيرة، كاللواقى أعطتها بالأمس القريب
واحدة من مدننا «أوغاريت» في «رأس شمرا»، فأوضحت بذلك
كيف أنّ السوريين الأوائل كانوا الرّواد في بناء الكلمات، وإبداع كلّ

حرف من حروفها بأبجديتهم التي تحقّق أنها أقدم أبجديّة أستتار بها عقل الإنسان منذ آلاف السنين، حين قدّموها لسواهم من شعوب الأرض التي أتصلوا بها بعد أن بنوا السفن الكبيرة كما بنوا الكلمات.. وليس ببعيد ذلك اليوم، الذي سيكون لبلدنا الشأن الأول عند الناس، الواعين في تقليد معارف الفكر والعقل والحرص على الحجج إلى أطلالها، ويقابها حضاراتها القديمة، التي ما شهد العالم أمثال عظمتها وروعيتها.

وفي رسالة من هذه الرسائل الثلاث يتحدث عن شارع «أبي رمانة»، وعن سبب تسميته بهذا الاسم، حديثاً لم يسبقه إليه أحد، حديث ابن البلد المحبّ لبلده، الوفيّ لحبيّه أحسن الوفاء، فهو يدرس ويستطلع ليعرف عن بلده وحبيّه قدر استطاعته، فتأتي كتاباته وثائق هائلة في هذا المجال.

وفي آخر حديثه عن «أفاميا» يحدّثنا أيضاً عن منطقة «الغاب»، تلك القطعة من بلادنا التي كانت أشبه ما تكون بمجاهل أفريقيا قبل أن تُجفّف، ولا أدري هل أخذنا لها أفلاماً وثائقية قبل تجفيفها أم فاتنا ذلك - وما أكثر ما يفوتنا - على كلّ جاء حديث الدكتور داغستاني عنها وثائق حيّة عندما نقرؤها نستطيع أن نتخيّل تلك المنطقة من بلادنا كيف كانت قبل أن تُجفّف وكأننا نرى صوراً مؤرّدة بالحياة تتوالى أمامنا.

أظنّ أنّ الوقت لا يسمح لنا أن نتحدّث بإسهاب عن كتابه القيم

الأخر: «حكاية البيت الشامي الكبير»، الذي أعتبره بعض النقاد روايةً
دراميةً طويلة. في الواقع لم يفكر المؤلف، حين عمد إلى تأليف هذا
الكتاب، أن يكتب رواية، فلا أذكر أنني سمعت منه كلمة رواية، إنما
قصد أن يحدثنا كيف بنى الوالي «أسعد باشا العظم» هذا البيت الكبير،
الذي جاء أشبه بالقصور منه بالبيوت، ثم كيف أغتال العثمانيون الوالي
«أسعد باشا العظم» حين علا صيته، على طريقتهم كلما أوجسوا
خيفةً من والي جسور مقتدر، خشية أن يستقل بولايته وينفصل عن
الأمبراطورية العثمانية. ففوجئ الوالي بقرار نقله إلى «سيواس»، وهي
ولاية في «الأناضول» التركية، لكي يتاح لهم أن ينالوا منه هناك بعيداً
عن أشياعه وأهله وبلده. وبقي «أسعد باشا»، وهو والي في «سيواس»،
على ثقته بالسلطان العثماني الذي أعطاه، فيما مضى، ما أسماه
السلطين «منحة الأمان»، وفيها يقتطعه السلطان عهداً مقدساً بمثابة
القسم، بأن لا يشهر أحد من رجال السلطان سلاحاً عليه بقصد القتل
أو الأذية، ولذا أفتوا فيما بينهم بأغتياله خنقاً كي لا يحدث السلطان
بيمينه، وبما تعهد له به. وكان لهم ما أرادوا حين تم خنقه في الحتام
وهو يغتسل، واحتجزت أمواله وممتلكاته الموقوفة في بلاد الشام حجزاً
مؤقتاً، وأخرجت كنوزه من مخابنها، في البيت الكبير، وصودرت أمواله
التي بلغ من وفرتها أن عمدت الدولة العثمانية إلى رفع قيم عملتها
كما روى ذلك المؤرخون. وبعد فترة طويلة رُفع الحجز عن عقاراته
الموقوفة، فجاء ورثته وسكنوا البيت الكبير...

ويضيف المؤلف العادات والتقاليد الشامية السائدة في ذلك

العصر، في الأفراح والأفراح، والمشكلات التي تحدث عادة بين الأخوة والضررات وأبناء العمّ والحموات والكثات، وقد أستقى هذه المعلومات كلها من سيّدة واعية مثقفة من أسرة «العظم»، هي حمّة المؤلف السيّدة «يسار المؤيد العظم»، وقد سكنت هذا البيت مع زوجها مدّة، ودوّنت أثناءها مشاهداتها كلّها من دفترٍ أعطته إلى صهرها الأديب «كاظم الداغستاني»، لينقل منه ما طاب له إلى مؤلفه «حكاية البيت الشامي الكبير». فجاء الكتاب بخمسة عشر فصلاً، تشكّل رواية مأساوية أشبه ما تكون بتلك الروايات الحديثة، التي لا تتركز على الحدث بقدر ما تتركز على الأجواء التي تحيط به، والتفاصيل الصغيرة التي تكوّن بمجموعها الأسباب الدافعة إلى حدوث الحدث.

في اعتقادي لا شيء يشوّه الأدب كالتلخيص، فمن شاء أن يعود إلى هذه الكتب فلا تزال باقية منها أعداد قليلة في «مكتبة العائلة» لصاحبها الأدبية «مهة فرح الخوري».

وأخيراً أحبّ أن أنهي أمسيتنا هذه بقطعة صغيرة من شعر الدكتور «كاظم الداغستاني» المنشور، كان قد نشرها في أوائل الثلاثينات من هذا القرن، في إحدى المجلّات، وقد بدت لي وكأنها قصّة رمزيّة.

في الواقع لم نعر على شعره المنشور، يبدو أنه أتلّف قبل رحيله، لأنه لم ينشره حين كتبه وقد تغيّرت المفاهيم كثيراً خلال سبعين عاماً.

عنوان القطعة «الجناح المكسور»:

أرأيتها وقد طارت بجناحيها آمنة عوادي الزمن..
لقد شئت بين الرياض، وحامت حول الأزاهر،
وتنقلت من غصن إلى فنن.
لقد مضت والربيع إلى ضفاف الغدير تشرب في
كؤوس الزهور رحيق الشباب والهوى.
ومشت يحدوها الأيام على رمال البحار وفي سفوح
الجبيل ترتل نشيد الصبا
وغزتها أمانى الحياة!... فظننت وعود الزمان حقيقة لا
تفترى
وهبت العاصفة، فإذا الجناح ينكسر، وإذا الآمال
تنقضي، وإذا الهوة سحبة المدى
لقد أضناها المسير، وأجهدنا النحيب، وفث في
عضديها الأسى
يا للرجال الراحمين!
لقد رددت صخور الوادي صوت الأنين، ولا من مجيب
سوى رَجْع الصدى!..
رحم الله خالي الدكتور «كاظم الداغستاني»، وطيب ثراه، فقد
كان نسيج وحده وشخصية لا تنسى.
وماذا يبقى من الناس إلا الأحاديث والذكر؟

هوية دمشق

نُشر هذا المقال، مختصراً،
في جريدة «تشرين»، يوم ١٥ - ٤ - ١٩٧٧.

هوية دمشق

وَعَيَّثُ دِمَشْقَ، فِي أَوَائِلِ هَذَا الْقَرْنِ، وَأَنَا صَبِيَّةٌ يافعة.. كانت تبدو لي وكأنها واحدة خضراء تحيط بها الأشجار من كلِّ جانب، وتتخلَّلها البساتين الفيح النَّدايا، وتجري بها سبعة أنهرٍ دَفَاقَة. وكُنَّا نَسْكُنُ فِي بَيْتٍ قَائِمٍ عَلَى سَفْحِ قَاسِيُونِ، يَمُرُّ بِحَدِيقَتِهِ الْوَاسِعَةِ «نَهْرُ يَزِيدَ» (سُمِّيَ يَزِيدَ نَسْبَةً إِلَى الْخَلِيفَةِ الْأُمَوِيِّ «يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ»، فَهُوَ الَّذِي أَمَرَ بِحَفْرِهِ فِي هَذِهِ الْمُنْطَقَةِ). وَأَذْكُرُ أَنَّ مِيَاهَهُ كَانَتْ صَافِيَةً كَدَمْعِ الْعَيْنِ، قَبْلَ أَنْ يَطْرَأَ عَلَيْهَا مَا طَرَأَ مِنْ التَّلَوُّثِ. وَكَانَ سَكَّانُ دِمَشْقَ، آنَ ذَاكَ، لَا يَتَجَاوَزُ عِدْدَهُمُ الثَّلَاثُمِئَةَ أَلْفَ نَسْمَةٍ.

لَا شَكَّ أَنَّ هُنَاكَ كَثِيرًا مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْعَوَاصِمِ الْمُحَاطَةِ بِغَابَاتٍ أَكْبَرَ وَأَكْثَفَ مِنْ غَابَاتِ دِمَشْقَ، لَكِنْ مِيزَةُ غَابَاتِ دِمَشْقَ أَنَّهَا كَانَتْ مِنَ الْأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ النَّادِرَةِ، الْفَرِيدَةِ بِطَعْمِهَا وَرَائِحَتِهَا الْعَطْرِيَّةِ. هَلْ هُنَاكَ مِثِيلٌ لِلْمَشْمَشِ الْحُمَوِيِّ؟ أَوِ الدُّرَّاقِ الزَّهْرِيِّ

أو الغنمي، أو الإجاوص أبو ريحة، والتفاح السكري، حتى خوخ
الدب، والإجاوص أبو زيلة، ما زلت أذكر طعمها اللذيذ إلى الآن.
كذلك الليمون البلدي، والكباد، والتارنج، والفراسكين وو.. إلخ.
هذه كلها أنقرضت من دمشق.. لأن موطنها الأصلي هو بساتين
دمشق وليس الغوطة، فلم تنجح زراعتها في الغوطة، فلما زالت
بساتين دمشق أنقرضت هذه الأنواع من الفاكهة النادرة، وحلَّ
محلَّ أشجارها الوارفة الخضراء أبنية إسمنتية كالخ، ليس في بنائها
شيء من الفن أو الجمال!!..

لقد أحصى «أبو البقاء البدری» في كتابه «نزهة الأنام في محاسن
الشام»، الذي صدر في أواخر القرن التاسع الميلادي، عشرين صنفاً
من المشمش، وثلاثين من العنب، وخمسة عشر من الدراق
وو... إلخ.

يبدو أنه كان لأهل دمشق إلمامٌ ملحوظ بفنّ البستنة.. يقول
«البدری» في كتابه أيضاً: كنت ترى الأشجار، في بساتين دمشق،
وكانها السطور في الكتاب، وقد تطرح الشجرة الواحدة أربعة أو
خمسة أنواع من الفاكهة، وتزهر شجرة الورد الواحدة أربعة أو خمسة
ألوان من الورد، وهو ما يسمونه - في صناعة الفلاحة - بالتطعيم.
وذكر «البدری» في كتابه أيضاً الورد الأسود، يعني ذلك أنهم
استطاعوا أن يستولدوا الورد الأسود منذ ذلك العهد البعيد، وقد
استُولد حديثاً في أوروبا.

كان السائح الغريب الذي قطع المسافات الشاسعة ليزور دمشق، أقدم مدن العالم والعاصمة العربية الشهيرة في التاريخ، يُصاب - لأول وهلة - بخيبة كبيرة... لأنه يرى عاصمة متواضعة، لا تتناسب شهرتها مع واقعها الراهن! ولكن لا يلبث قليلاً حتى يكشف مخبئاتها، فتتجلى له عراقتها، خلاصة الحضارات التي تعاقبت عليها، فيعجب بجوامعها ذات القباب الضخمة المزينة بالفسيفساء، ومآذنها الرشيقة، وحماماتها الواسعة النظيفة، وبيوتها الدمشقية الفريدة من نوعها ذات الطراز الخاص، والتي كانت تبدو من الخارج متواضعة جداً، باب الدار القصير لا يوحي بما ورائه أبداً، لأن رب البيت كان يخشى الغزاة الذين كثيراً ما تعاقبوا على دمشق، كـ «التتار»، و«المغول» وغيرهم، فكان يحرص أشد الحرص على أن يُخفي ثراه ما أستطاع إلى ذلك سبيلاً.

كان الباب القصير المتواضع يُفتح أيضاً على دهليز معتم ضيق، في نهايته بابٌ قصير أيضاً، فإذا فُتح هذا الباب أمام السائح الغريب، الذي لا يعرف بيوت دمشق، كان لا بدّ له أن يقف مشدوهاً أمام هذا المنظر الأسطوري الذي ما كان لينتظره أبداً، باحة واسعة جداً مفروشة بالرخام الأبيض المزّخر بالرخام الأسود، في وسطها بَحرَةٌ كبيرة، تتوسطها نافورة ثرثرة، وقد برع الرُحّامون في تزيين البحرة بأنواع الرخام الملّون، وقد أحيطت باحة الدار بأحواضٍ زُرعت فيها أنواع الورود والأزهار، ومن خلفها أشجار

الليمون والنارجس والكتباد والفراسكين ودوالي العنب، تزهق فيها
العصافير ويهدل الحمام، وإذا كان الوقت صباحاً أو مساءً سمعت
الشحارير تُردّد مواويلها..

ولا بدّ للسائح الغريب أن يتساءل، فيما بينه وبين نفسه: هل
هذا متنزهٌ خاصٌّ فريد من نوعه؟؟ وكيف وُجد هذا المتنزه بين هذه
الحارات الضيقة والدهاليز المعتمة؟؟

ولا بدّ أن يُسعفه المرافق له، الذي يعرف لغته وجاء به ليعرفه
على البيت الدمشقيّ الأصيل، فتزداد دهشة السائح وإعجابه،
فبروح يتمعن فيما يرى، فإذا على يمين الداخل يوجد الليوان ذو
القوس العالي، الذي عُشّست عليه الياسمين، يصعد إلى الليوان
بثلاث درجات، وهو كغرفة كبيرة تحوطها ثلاثة جدران، والجدار
الرابع مفتوح كلّهُ على باحة الدار، وقد فُرشت أرض الليوان
بالسجاد العجمي، وضُقت حول جدرانه الثلاثة الأرائك، عليها
الحشايا والمساند المطرزة، وفي هذا الليوان كانت تسهر الأسرة في
أكثر أيام السنة ما عدا أيام الشتاء.

مقابل الداخل إلى باحة الدار تقوم القاعة، وهي مخصصة
لأستقبال الضيوف. يُصعد إليها بثلاث درجات أيضاً، وتفتح على
عُتبة واسعة مربعة، تتوسطها بحرة من الرخام الأبيض المزّين برخام
ملوّن على أشكال هندسيّة. تُطلّ على هذه العتبة ثلاثُ غرف
مفتوحة كلّها على العتبة، لكلّ غرفة ثلاثة جدران، ويصعد إليها

بثلاث درجات، وقد كُسيت جدران وسقوف هذه الغرف بالخشب على أشكال هندسيّة، وأوراق أشجار وأزهار مدهونة كلّها بالألوان هادئة يرتاح إليها النظر، وتشهد كلّها ببراعة الصّانع الدمشقيّ، ويده الصّناع، وذوقه الرفيع في اختيار الألوان، وصبره الطويل على إبداع المنمنمات.

مع الأسف الشديد أنّ هذه الروائع من تراثنا أقتلعت أكثرها من مكانه، وتسوّب إلى الخارج حيث بيع بأعلى الأثمان، لا سيّما في زمن الفرنسيّين، لأنّ قرار منع خروجها من دمشق جاء متأخراً جدّاً. وما بقي منها أقتلعت أيضاً من مكانه وأنقل من ملكيّة فرديّة إلى ملكيّة فرديّة أيضاً، أي أنقل من طبقة هابطة إلى طبقة صاعدة، ولهذا أهون الشرّين لأنها بقيت في البلاد التي أبدعت فيها. أمّا كان أولى بالدولة أن تشتريها من أصحابها، وتزيّن بها منشآتها الحديثة، من فنادق، ومسارح، ومطارات، ودوائر حكوميّة؟ لم نقل المدارس والمشافي، لأنّنا في أشدّ الحاجة لإنجازها في أسرع وقت.

وقد أقتنعنا أنّ الأفراد لا يستطيعون أن يبنوا مثل هذه الأبنية المستلهمة من التّراث، لأنها تستهلك كثيراً من الوقت وتكلّف كثيراً من المال، وهي لا تفي بمتطلّبات العصر الحديث، لأنّ قطعة الأرض الصغيرة تقام عليها الآن بناية من عدّة أدوار تستوعب أسراً كثيرة قد تكون بلا مأوى، بينما البيت الشاميّ القديم يحتاج إلى قطعة أرض كبيرة وتسكنه أسرة واحدة.

ولمّا كان الشيء بالشيء يُذكر، فإنه لا بدّ لي أن أضيف إلى هذا المقال - الذي كتب منذ عهد بعيد - ملاحظةً جديدةً وهي أنّ مطعمًا بُني حديثًا في دمشق، قد كُلف بناؤه عدّة ملايين من الليرات، وتما يثير الاستغراب إلى حدّ بعيد، أنّ زخارف هذا المطعم صُمّمت على غرار قصر «فرساي» في فرنسا، الذي لا يمتّ إلينا ولا نمثّ إليه بصلة من قريب أو بعيد، وقد جاء مشوّهاً عن الأصل!.. هل هذا يدلّ على زهدٍ فاضح في تراثنا العريق؟! أم على رأي المثل الذي يرذّده الجهلة والعوام: زامرُ الحي لا يُطرب!.. ولو صُمّمت هذه التزيينات على غرار قاعاتنا القديمة، أما كانت عبّرت عن شخصيّتنا، وذوقنا، ونكون قد أحيينا تراثنا الذي أوشك على الضياع، وكانت بالنسبة للسائح الأجانب شيئًا جديدًا لم يروا نظيره في بلادهم.

إنّ الذي يبعث على الأطمئنان بعض الشيء هو أنّ الجيل الجديد لا يخلو، الآن، ثمن يقدّرون التّراث، ويعملون جاهدين على الحفاظ عليه، ويحضّون البنايين والفنانين على استلهاه وتطويره قدر المستطاع. وعلى رأس هؤلاء جميعًا الدكتورة «ناديا خوست»، الدمشقيّة الأصيلّة، التي أكنّ لها تقديرًا وإعجابًا كبيرين جدًّا، لأنها تعمل منذ سنوات جاهدةً في هذا المجال، ولها من شدّة حماسها، ووفرة شبابها، وقدرتها على الدّأب دون كلل أو ملل، الشيء الكثير، ممّا يجعلنا نستبشر بنجاح مسعاها المشكور ممّا جميعًا. ونرجو أن يقتدي بها الكثيرون من أبناء هذا الجيل.

ما مررت مرّة من أمام «مكتبة الأسد» إلا شعرت بغصة، لأنّ هذا المركز الثقافي الضخم، القائم في أوجّه مكان من بلدنا، لم يبنَ من الخارج على طراز عربيّ عريق يعبر عن شخصيتنا وتراثنا...

عندما زرت المغرب كان أكثر ما أثار إعجابي هو تمسك إخواننا المغاربة بالتراث العربيّ، فأكثر أبنية الدولة مستوحاة من هذا التراث. وكم أتمنّى أن تترث دولتنا قبل أن تُقدّم على بناء ما، وتستشير ذوي الخبرة في هذا المجال، كي تبني شيئاً يظلّ خالداً، ويعبر للأجيال القادمة عن عصرنا هذا، وذوقنا وأتوماتنا وشخصيتنا، حتّى لو اقتبسنا من الغير، نُضيف إليه شيئاً من عندنا، أي نطوّره حسب ذوقنا. لقد مضى على بناء «قصر الخير»، الذي تُزّن واجهته مدخل متحفنا الوطنيّ، ما يقرب من ١٢٦٨ سنة ميلاديّة، وما زلنا نفخر ونفاخر به إلى الآن...

ولولا الجوامع، وقد بني أكثرها على طراز عربيّ، لفقد هذا الطراز من شوارعنا، ولم يبقَ له أيّ أثر، ويظلّ محصوراً في «قصر العظم»، و«متحف مدينة دمشق» (أي بيت السيد «خالد العظم»)، و«القاعة الشاميّة» في «المتحف الوطنيّ»، وفي بعض البيوت الشاميّة القديمة، كـ «مكتب عنبر»، و«بيت نظام»، و«بيت المجلّد»، و«بيت السباعي»، وغيرها من البيوت القديمة، التي نأمل أن تعمل مصلحة الآثار على صيانتها ما أستطاعت إلى ذلك سبيلاً.

عندما كتبنا عن بيوتنا الشامية القديمة، وعن عاداتنا وتقاليدنا، أتهمنا بعض النقاد بالجمود، وقالوا: كلُّنا نتمنَّى للزمن أن يتوقَّف.. لقد فاتهم أننا كنا نلجَّ على إبراز النواحي الإنسانيَّة والجماليَّة من تراثنا وتقاليدنا لنُغري بها الجيل الجديد، عساه يعود إليها فينتقي منها ما يتلاءم مع ذوقه، ومع السَّير الحضاريِّ الحديث.

عندما زرت اليابان كان أكثر ما أثار دهشتي هو تمسُّك اليابانيين بكثير من عاداتهم وتقاليدهم القديمة، في طريقة طعامهم، في لباسهم في المناسبات العائليَّة الرسميَّة. تصادف أن شهدنا عرساً يابانيّاً أقيم في الفندق الذي كنا نقيم فيه، لاحظت أنّ أكثر المدعوين كانوا يرتدون «الكيمونو» كلباس رسميٍّ، وهنالك كثيرٌ من العادات والتقاليد القديمة ما تزال سائدة عندهم إلى الآن، منها أنّ الآبن البكر مجبَرٌ أن يسكن مع والديه، ويجب ألاَّ يحول أيُّ شيء - مهما كان هامّاً - دون هذا التقليد، وقد أسْتَطاعت اليابان، على الرغم من تمسُّكها بكثير من تقاليدها القديمة، أن تقطع شوطاً بعيداً في جميع مجالات الحضارة الحديثة، ممّا أثار إعجاب العالم كلّهُ.

عندما بنت روسيا السوفييتيَّة محطّات المترو الفخمة في موسكو ولينينغراد، كانت في حالة قصوى من الضيق المادي، تعمل جاهدةً لتوفّر إمكاناتها كلّها لإنتاج السلاح، وبناء المصانع الضخمة التي تنتج الصناعات الثقيلة، وعلى الرغم من هذا كلّهُ لم تبخل على تزوين

هذه المحطات، بالروائع الفنيّة التي تبدو من الكماليّات التي يمكن الاستغناء عنها، لقد بدت هذه المحطات كأبهاء القصور الملكية والمتاحف الفنيّة، بعد أن زُيّنت بالمنحوتات الرائعة لأكبر الفنّانين والنُصب التذكاريّة الفخمة التي تذكّر الشعب بمواقفه البطوليّة، واللوحات الفنيّة، وثرّيات الكريستال الثمينة، كتلك التي كانت في قصور القياصرة والنبلاء، ممّا يبهّر الزائر، ويجعله يقف ذاهلاً أمام هذا الثّرّف البالغ، ثمّ لا يلبث أن يتساءل بكثير من النقد اللاذع، ما معنى هذا البذخ كلّ، والشعب ما يزال في حاجة ماسّة إلى كثير من الضروريّات ١٩٩

ويأتي الجواب مُقنعاً: كانت هذه الفنون الرائعة كلّها في الماضي مُلكاً لطبقة خاصّة تستمتع بها في قصورها... والشعب ممنوع من رؤيتها..! أمّا الآن، فقد انتقلت من الملكية الفرديّة إلى الملكية العامّة. ولما كانت محطّات المترو أكثر الأمكنة التي يمرّ بها الناس كلّ يوم عدّة مرّات، فقد جعلناها بهذا الشكل الأنيق للترفيه عن الشعب، وتنمية الذوق الفنيّ فيه.

حقاً ليس بالحيز وحده يعيش الإنسان...

ولم لا نتخذ من إسبانيا، أولى البلاد السياحيّة في أوروبا كلّها، أمثولةً لنا؟ إنّ الذي أتاح لإسبانيا هذا السبق السياحيّ على دول أوروبا كلّها، هو ما تركه لها أجدادنا من آثارٍ رائعة قيّمة، وقد عرّفت إسبانيا كيف تستلهم هذا التراث الفنيّ وتستفيد منه في

وقتها الراهن، إن زخارف «فندق الحمراء» في غرناطة هي صورة طبق الأصل لزخارف «قصر الحمراء» الذي بناه في غرناطة بنو الأحمر. لقد قلّدوا هذه الزخارف، بما فيها من آيات قرآنية وخطوط عربية، كما هي تمامًا، فجاءت آية في الجمال الفريد من نوعه في أوروپا كلها.

كذلك نرى في فندق «ألفونسو الثالث عشر» باحة كتلك الباحات، التي كنّا نسميها في بيوتنا الشاميّة القديمة «أرض الديار»، تتوسطها بحرة وضعت حولها أضصّ زرع فيها الشمشير وغيره من النباتات التزيينية، وحول الباحة أحواض زرع فيها الياسمين والليلك والزلف، ومن ورائها أشجار الليمون والكتّاد والنارنج. فيرى فيها السائح شيئًا مميّزًا عمّا ألفه في فنادق أوروپا وأمريكا فينجذب إليها أكثر من أيّ بلد سياحيّ آخر. إن أكثر ما يشدّ الإنسان إلى وطنه هو هذه السمات الخاصّة التي لا يجدها في بلد آخر. ولكلّ شعب خصوصيّاته التي يحرص أشدّ الحرص على الحفاظ عليها.

إذا كنت بعيدًا عن وطنك، فكما تشتاق لأهلك وصحابك وجيرانك، قد تشتاق أيضًا إلى بناء قديم ذي طراز خاصّ كنت تراه منذ صغرك، في رواحك وبحبيئك، أو إلى مثلذنة كانت تترامى لك من شبّاك بيتك سامقة رشيقة ينبعث منها عند الفجر صوت المؤذّن ناعمًا حنونًا فتنهض إلى صلاتك خاشعًا مطمئنًا. ربّما

يحرك الحنين فيك شوق ملح إلى سحبة مؤال إبراهيمي كان يروق
لجارك أن يصدق به عندما يعود إلى بيته آخر الليل، زغرودة
حلوة ترددها بنت الجيران في عرس أخيها فيرقص قلبك طرباً
لحنان الصوت وحلو المعاني، أكلة «رز بالبول» مع اللبن والبصل
والطرخون تحت أفياء شجرة مشمش مكللة بالزهر في أحد
بساتين الغوطة أيام الربيع و....

فإذا عدت إلى وطنك، منجذباً بهذه الأشياء العزيزة عليك كلها،
لأنها في الواقع هي التي تعطيك سمات الوطن، ولأنك تشعر أنها
منك، وأنت منها، فكم تكون خبيتك كبيرة عندما تجد أن كل شيء
قد تغير!! فلا زغاريد، ولا مواويل، ولا بناء قديم، ولا مثذنة، لأن
التنظيم الجديد قد جرفها!!..

في ألمانيا أضطروا مرة أن يفتحوا شارعاً ضرورياً للمنطقة، ولكن
أعترضت طريق الشارع كنيسة أثرية، فلم يضحوا بها، بل أستطاعوا
بالأساليب الحديثة أن يجزوها مع أساساتها إلى مكان آخر بعيدٍ عن
الشارع. لا شك أن هذه العملية قد كلفت مبالغ طائلة، وجهوداً
جبارة قاموا بها راضين، كي لا يضحوا بشيء من تراثهم، وما أكثر
أمثالها عندهم..

أما ثالثة الأثافي فهي أن صوت المؤذن الناعم الحنون أصبح
يأتيك مسجلاً بواسطة مكبرات الصوت الصاخبة، التي كثيراً
ما «تشخط» فتثير الأعصاب بدلاً من أن تثير الحشوع والأطمئنان،

في الواقع لم يعد لوجود هذه المكثرات أي مبرر لكثرة الجوامع عندنا فيستطيع صوت المؤذن مهما كان خافتاً أن يصل إلى البيوت جميعها.

أما صاحبنا القديم «بردي»، فقد عرفته في عزّ عنفوانه وجبروته، أي كما كان أتمام الرومانيين. يتدفّق صاخباً بين أشجار الصفصاف الحانية عليه من قرية «عين الفيحة» حتّى «الزبّة»، وهناك يتفرّع إلى سِتّة أنهر هو سابعها، فلا يبالي، بل يظلّ يصفّق بالرحيق السلسل...

أما الآن فقد فَنَدَ المسكين ثلثيه، فراح يتوارى خجلاً بين الصخور أو في منابت الأشجار... لأنّ أكبر رافد لنهر بردى هو مياه نبع عين الفيحة وهي أكبر من بردى بمزتين. ولكن بعد أن أصبح عدد سكان دمشق ما يقارب الخمسة ملايين، أصبحت مياه نبع الفيحة تُستهلك للشرب فقط، وفقد بردى ثلثيه، فلم يعد يستطيع أن يتفرّع إلى سِتّة أنهر، فجفّ أكثرها، وأصبح مستودعاً للزبالة والنفايات، وبؤراً للجراثيم، تمرح فيها الحشرات والحيوانات القارضة والزاحفة!..

كان لا بدّ لبردي، عندما كان في عزّه القديم، من هجمة جنونيّة على حبيبته دمشق في أوائل الربيع من كلّ سنة، أي عندما تبدأ الثلوج بالذوبان، فتتدفّق مياهه وتغرق «ساحة المرجة» أي «ساحة الشهداء» والأحياء التي حولها. وكنا نسمي

هذه الهجمة بـ «الزودة». وقد رأيت مزة ساحة المرجة مليئة بالمياه، إلى حدّ تصطبّخ فيها الأمواج حسب اتجاه الرياح العاتية في ذلك اليوم!

إنّ هذا الهجوم البشريّ الشرس على دمشق، من المحافظات والأرياف، شجّع تجار البناء، دون أيّ رادع أو مخطّط، لبنينا العمارات الإسمنتيّة الضخمة بأقلّ كلفة ممكنة وأقلّ وقت ممكن، ليحقّقوا لأنفسهم الأرباح الطائلة، ولهُؤلاء الوافدين الجدد أماكن سكنيّة كيفما اتّفق، ليس فيها شيء من الفنّ أو الجمال، بنوها مكان البساتين الوارفة الخضراء التي كانت تتخلّل دمشق وتحيط بها من كلّ جانب!!..

سمعت مزة من مهندس نابه، له إلّامٌ بهندسة المدن، يقول: لو أتيح لنا أن نحافظ على بعض سمات دمشق القديمة، أي لتظلّ محاطةً بالأرياف الخضراء، تتدفّق بها الأنهر وتتخلّلها البساتين، ونقيم لكلّ حيٍّ متنزّهاً كما في البلاد المتحضّرة... فإنّ إمكانيّات دمشق المائيّة لا تجعلها تستوعب أكثر من مليوني نسمة فقط بينما يسكنها الآن أكثر من خمسة ملايين!!..

أليس مأخذًا كبيرًا علينا نحن أبناء القرن العشرين أن نفقد دمشق، أقدم مدن العالم في عهدها، هويّتها التي عُرفت بها عبر تاريخها الطويل مليئةً للسحر والجمال!!..

إنّا لله وإنا إليه راجعون..

قصة يوسف
مازونة المازي في الأدب القصصي

نُشر هذا المقال، مُختصراً،
في جريدة «الوحدة»، يوم ١٥ - ٤ - ١٩٦٢.

قصة يوسف طروحة الطرح في الأدب القصصي

وكيف لا تكون ذروة النثر في الأدب القصصي، والقرآن الكريم
يبدؤها بهذه الآية الكريمة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾

في الربع الأول من هذا القرن بدأنا بكتابة القصة القصيرة
بمفهومها الحديث، وكثيراً ما قال النقاد، إنَّ هذا النوع من القصص
دخل على أدبنا، ونحن بحاجة لأن نقبض أصوله وأساليبه
الحديثة من الغرب، ربما يتركز مفهومه في أدبنا، ويكتسب أصالة
تُحَوِّله مجارة غيره من فنون الأدب عندنا... حين نقول ذلك
ما إخالنا ندرك مدى الثروة القصصية الهائلة التي يملأها القرآن
الكريم، ومدى ما يكمن فيها من فن قصصي لا يمكن أن تبلى
جلته على مدى الدهور، بل سيظل حديثاً دائماً أبداً، لأنَّ الله
سبحانه جعله هدياً للبشر منذ أنزل القرآن الكريم إلى يوم
يبعثون... وقد أحبيت أن أختار قصة «يوسف»، من هذا القصص

القرآني الرائع، نموذجاً أحاول أن أطبق عليه مفاهيم القصة الحديثة. وأرجو أن أوفق..

إن من مفاهيم القصة الحديثة الدخول بالموضوع مباشرة دون أية مقدمات، ثم التركيز على الهدف الذي من أجله وُضعت القصة، ثم الوصول إلى هذا الهدف من أقصر الطرق، ويُفترض ألا يتدخل القاص برواية الأحداث، بل يترك روايتها لأبطال القصة عن طريق الحوارات التي تجري بينهم، هذا كله مع مراعاة عنصر التشويق إلى أبعد حد ممكن.. وعندما تصل القصة إلى هدفها يجب أن تقف عنده، لأنها حققت الغاية التي وُضعت القصة من أجلها.

من أجل هذا كله يجب أن نعزل العظات التي يُملق القرآن الكريم بها على أحداث القصة، ونستخلص القصة وحدها. فإذا بنا أمام قصة طويلة تتألف من خمس قصص قصيرة، كل واحدة منها ذات هدف، معين فإذا انتظمت هذه القصص الخمس في خيط واحد رأيناها رواية طويلة لا أروع ولا أبدهع.

القصة الأولى: تبدأ بحوار قصير بين يوسف وأبيه،

﴿إذ قال يوسف لأبيه، يا أبتِ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾. قال: ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً، إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾.

إنَّ هذا الحوار القصير، الذي جرى بين يوسف وأبيه، ينقلنا مباشرة إلى صميم الموضوع. وهذا من أهم ما يتطلبه فنُّ القصة القصيرة. نفهم أنَّ ليوسف إخوة من غير أمه يحسدونه، وأنَّ أباه - النبيَّ «يعقوب» - قهَم من الرؤيا التي رآها يوسف أنَّ ابنه أثيرٌ عند ربه، وأنه مُعَدُّ لأمر عظيم، فخشي عليه من حسد إخوته. وللأنبياء نظرةٌ مستقبليةٌ بما يوحى إليهم. وكان ما توقَّعه الأب.. فأجتمع الإخوة وتداولوا فيما بينهم، وقرَّرَ رأيهم على قتل يوسف ليخلو لهم وجه أبيهم، فاستأذنوه ليأخذوا يوسف معهم إلى حيث يرعون غنمهم ليرتع ويلعب؛

﴿قال: إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الثوب وأنتم عنه غافلون. قالوا: لئن أكله الثوب ونحن عصابة، إنا إذا لخاسرون!...﴾.

ويأذن لهم، بعد لأي، وهو يتوجَّس خيفةً على يوسف، ويقترح أكبر الإخوة ألا يقتلوا يوسف بل يلقوه في غِيَابَةِ الجبِّ عسى أن يلتقطه بعض السابِلة. فألقوه في الجبِّ وعادوا إلى أبيهم يتباكون، ويقولون له: لقد حدث ما كنتَ تخافه؟ لقد ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا، فأكله الثوب، وجاءوا على قميصه بدمٍ كذب، فلم يُصَلِّقْ دعوهم.

﴿قال: بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً، فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون﴾.

وظلّ يأمل أن يلتقي يومًا بيوسف.

هنا تنتهي هذه القصة القصيرة، لأنها حققت الهدف الذي وُضعت من أجله، أي إلى أي مدى يستحكم الحسد بالنفس البشرية، قد يصل بها إلى حدّ يقتل فيه الأخ أخاه دون أي تورّع ليشفى من حسده، ولا يشفع لهذا الأخ صغرته، وبراءته، وجماله. ولا يهم القارئ، ولا الكاتب، ماذا حدث بعدئذٍ ليوسف، لأنّ القصة قد حققت الهدف الذي من أجله وُضعت.

القصة الثانية: يوسف في الجب.

شعر يوسف بمحنةٍ كبيرة قد تؤدّي به إلى عذاب طويل ربّما انتهى بالموت، وقد دبر له هذه المحنة إخوته، أقرب الناس إليه... كاد اليأس أن يقتله لولا إيمانه الكبير بالله سبحانه وتعالى، فراح يستنجد به.. فإذا هو يشعر بالسكينة والطمأنينة تنزلان على نفسه الهالعة.. وما هي إلا ساعات معدودة حتّى يسمع أصواتًا وجلبة فيأمل خيرًا، فإذا بعض السابلة يمزّون من قرب الجب، ويمكنون قليلًا للاستراحة، ويرسلون واردهم - أي الذي يورد لهم الماء - ليمتح من الجب ماءً، فيُلقي بدلوه، ويتعلّق يوسف بالدلو، فيتلقّاه الرجل الذي يمتح الماء، ويُنزع إلى سادته:

«قال يا بشرى هذا غلام، وأسروه بضاعة، والله عليهم بما يعملون».

وَلَيْتَمَ الْقَدَرُ لِعِبْتِهِ، بِشْتَرِيهِ عَزِيزُ مِصْرَ بِشَمْنٍ بِخَسٍّ، دِرَاهِمٍ
مَعْدُودَةٍ. وَيَتَوَسَّمُ بِهَذَا الصَّبِيِّ الْيَافَعَ، الَّذِي تَدُلُّ هَيْئَتُهُ عَلَى النَّبْلِ
وَأَصَالَةِ الْمَنْبِتِ، الْخَيْرَ وَالصَّلَاحَ.. وَيُجِيبُهُ بِهِ إِلَى زَوْجِهِ الْعَاقِرِ وَيَقُولُ
لَهَا، أَكْرَمِي مِثْوَاهُ، عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْخُذَهُ وَلَنَا.

الهدف من هذه القصة هو أن الإنسان رهين قدره. فالذي
حدث ليوسف لا يد له فيه أبداً، بل هو من تدبير الخالق عز وجل.

القصة الثالثة: يوسف وأمرأة العزيز.

مكث هذا الفتى اليافع، في دار عزيز مصر، بضعة سنوات، مكثماً
معزراً إلى أن استوى شاباً قويّ البنيان، رائع الجمال، جذاب
الملامح، فعشقته التي هو في دارها عشقاً مُبْرَئِحاً، فراحَت تتصَدَّقُ
له، وتُغْرِيه بكلّ ما لديها من قلادة على الإغراء، وهو يعزف عنها
ويتجاهلها، إلى أن يشتت منه، فدعته مرة إلى غندها وغلقت
الأبواب، وقالت، هَيْتَ لَكَ.

ولقد هُتِمَ به، وهُمِّمَ بها، ولكن الله سبحانه عصمه من الزلل.

﴿قَالَ، مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنُ مِثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾.

وركض نحو الباب، فلحقت به، وجذبت من قميصه، فتمزّق

من الخلف. وإذا زوجها وأحد أقاربها عند الباب.

﴿قَالَتْ، مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ. قَالَ، هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي.. وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ

قميصه قُدَّ من قُبُلِ فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ فكذب وهو من الصادقين، فلَمَّا رأى قميصه قُدَّ من دُبُرٍ، قال، إِنَّهُ من كَيِّدِكَ، إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾.

وشاع بين نسوة المدينة أَنَّ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، ورحن يتناولن سيرتها باللوم والتفريع، فما كان منها - عندما بلخها مكرهن - إِلَّا أَنْ دَعَتْهُنَّ إِلَى مَجْلِسٍ وَقَدِّمَتْ لَهُنَّ الْفَاكِهَةَ، وَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا؛

﴿وَقَالَتْ: أَخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ. فَلَمَّا رَأَيْهِنَّ، أَكْبَرْنَهُ، وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، وَقُلْنَ، حَاشَ لِلَّهِ، مَا هَذَا بَشَرًا، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ، قَالَتْ: فَذَلِكَ الَّذِي لَمْتَنِي فِيهِ، وَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَاسْتَعْصَمَ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيَسْجُنَّ وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّاعِرِينَ﴾.

لم يقل القرآن أبدًا إِنَّ يوسف كان جميلًا، بل أعطانا صورةً حسيَّةً عن جمال يوسف المذهل، هي أبلغ من أيِّ كلام يُقال في الجمال. ولهذا من إعجاز القرآن الكريم الذي حاشا أن يجارى.

وراحت امرأة العزيز تطلب من زوجها أن يُسجن يوسف لينتفد سمعتها أمام أهل المدينة. وما زالت به حتَّى أقنعتة، فسجن يوسف الإنسان البريء النزيه دون ذنب جناها...!

هذه القصة تثبت لنا إلى أيِّ مدى تنجرح كرامة الأنثى إذا تصدَّت للذكر فعزف عنها. لا سيَّما إذا كانت هذه الأنثى في مثل

مكانة وجمال امرأة العزيز، وكان الذي تصدئ له ما هو إلا أحد خدمها، حيث لن يتقلب الحب الكبير إلى رغبة طاغية في الانتقام والتشفي لا حدود لها..

وهذا الذي حدث ليوسف.

القصة الرابعة: يوسف في السجن.

أدخل يوسف، الإنسان البريء، التزيه، الوفي، السجن زوراً وبهتاناً، لكنه كان راضياً بالسجن على ما فيه من عذاب وحرمان. ألم يقل: ﴿قال: ربي السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، وألا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾.

وأحب السجناء لهذا الواصل الجديد، المميز عن غيره بخلقه القويم، وعلمه، وفراسته، فكان يفسر لزملائه السجناء أحلامهم فتصدق تفسيراته فيزداد إعجابهم به.

﴿ودخل معه السجن فتيان، قال أحدهما: إني أراي أعصر خبزا، وقال الآخر: إني أراي أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه، نبئنا بتأويله، إنا نراك من المحسنين﴾.

ويجدها يوسف فرصة سانحة ليُشِيرَ بلين إبراهيم. فقد أصبح لديه من البراهين ما يحمل الناس من حوله على تصديقه،

﴿قال: لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأكما بتأويله قبل أن يأتيكما، ذلكما مما علمني ربّي﴾.

﴿يا صاحبي السجن ألياب متفرقون خير، أم الله الواحد القهار﴾.

وكان لا بد أن يستجيب بعض السجناء لدعوته ويعزف عنها آخرون. وفُسر لهما الرؤيا قائلًا: ﴿يا صاحبي السجن، أما أحكما فيسقي ربه خمرًا، وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه. قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾.

ويطلب يوسف من الذي سيفرج عنه، أن يذكره لمولاه الذي هو فرعون مصر، عندما يسقيه الخمر، عساه يأمر بالإفراج عن يوسف، ولكن هذا ينسى يوسف، وينسى ما أوصاه به، فيمكث يوسف بالسجن بضع سنين آخر.

الهدف من هذه القصة هو أن صاحب الضمير الحي، والنفس الأبية، والخلق النزيه، يفضل السجن على ما فيه من حرمان وعذاب، على أن يخون من أئتمنه على عرضه وماله، أو يسيء إلى من أحسن إليه وأكرم مثواه..

القصة الخامسة: عندما يصبح يوسف عزيز مصر.

يرى فرعون مصر حلمًا يشغل باله ويتوجس منه خيفة. ويعجز المقشرون عن تفسيره.

﴿قالوا: أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾.
ويتذكر الذي نجا من السجن يوسف، فيذكر أمره لسيده

فرعون مصر، ويحذنه كيف كان يوسف يفسر الأحلام للسجناء فتأتي تفسيراته صادقة لا ريب فيها، ويأمر فرعون ساقيه أن يذهب إلى السجن ويروي الحلم ليوسف.. ويفسر يوسف الحلم، ويضع الحلول للمأسة التي ستحل بمصر من جزاء الجفاف الذي سيسبب المحل.

ويعجب فرعون بهذا الفتى، فيأمر بالإفراج عنه، وأن يؤتى به إلى القصر.

لكن يوسف يأبى أن يخرج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته. فيؤتى بـزوجة العزيز، وقد أصبحت عجوزاً، لتؤخذ شهادتها، فتعترف بأنها أفترت على يوسف، وتشهد أنه كان بريئاً وعفيفاً ونزيهاً. كذلك تشهد النسوة اللواتي قطعن أيدهن عندما رأين جمال يوسف المذهل.

ويخرج يوسف من السجن مرفوع الرأس، موفور الكرامة، ويعجب به فرعون مصر أشد الإعجاب فيجعله عزيز مصر.. ويأتي يوسف بوالديه وإخوته إلى مصر، بعد أحداث رائعة يرويها القرآن الكريم بإعجاز حاشا أن يُجاري.

الهدف من هذه القصة هو أن النفوس الكبيرة لا تحمل الحقد والضغينة، بل هي مفضولة على الغفران والتسامح، فقد عفا يوسف عن إخوته وجاء بهم مع أبويه ليعيشوا في مصر مكرمين معززين، على الرغم من إساءتهم الكبيرة له.

هذه القصص الخمس القصيرة تنتظم في خيطٍ واحد - كما
قلت سابقاً - فإذا هي تلك الرواية الطويلة الرائعة.

من هذا النبع الثر - القرآن الكريم - الذي يظلّ حديقًا، دائماً
أبدًا، في كلِّ عصر ومصر، إلى يوم يبعثون، نستطيع أن نقتبس منه
- قدر طاقتنا البشرية - ما شئنا من فنِّ القصة، قصيرة كانت أم
طويلة، ونظم المرجع الأسمى..

لمحة خاطفة عن
الأديب الدكتور إبراهيم الكيلالي

أُقيمت هذه الكلمة في «مكتبة الأسد» مساء ٢٢ آذار ١٩٩٤،
بمناسبة حفل التكريم الذي أقامته مجلة «الثقافة»
للأديب الكبير الدكتور «إبراهيم الكيلالي»
بدعوة من صاحب المجلة الأديب الأستاذ «ملحة عكاش»

لمحة خاطفة عن الأديب الدكتور إبراهيم الكيلاني

في أواسط الأربعينات من هذا القرن عرفت الدكتور إبراهيم الكيلاني، أول ما عرفته، محاضراً فذاً من فرسان المنابر، بأسر سامعيه بجاذبية إلقاءه، وأهمية موضوعاته وطرافتها، فلا ينصرفون عنه طرفة عين، من أول كلمة في المحاضرة إلى آخر جملة فيها. ومنذ ذلك الحين لم أفوّت عليّ محاضرة واحدة من محاضراته.. ثم ما لبثت أن توثقت بين أسرتينا عرى صداقة حميمة، فكنا نجتمع في سهرات دورية مع بعض الأدباء والأصدقاء. حينئذ عرفته معرفةً وافية، فإذا هو الدّمث الخلق، الرفيع التهذيب، اللطيف المعشر، البليق التصرف... ويعني لهذا كله أنّه يتميز بصفات الدمشقي الأصيل الذي يلقبونه بحلو الشمائل، ينعم جلساؤه بطلاوة حديثه الذي لا يخلو من فكاهة حلوة، أو نكتة محكمة، أو ملاحظة ذكية... ويشهد خلصاؤه والمقربون منه أنّ في طبعه عفة

وكبرياء، ما عُرف عنه أنه سعى يوماً إلى حاكم أو مسؤول، ليفوز بمنصب رفيع هو أهل له، أو ربح مادي... أحبّ الأدب عن هواية ملحة، وقد أتاحت له المطالعة، والتحقيق في التراث، والتأليف، والترجمة، معايشرة عمالقة الأدب والفكر والفنّ إن في الماضي البعيد، أو الحاضر الراهن، فوجد في هذه العشرة سعادةً ومتعة تتجدّدان دائماً أبداً، فأكتفى بهما عمّا في الحياة من مُتّع ومتع....
أما إذا قُدِّر لك أن ترى الدكتور كيلاي في موقف شَغَرَ فيه أنّ كرامته قد مُسّت ولو قليلاً، أو من طرف خفيّ، فإنّك لا تدري كيف تنقلب الذمّات، والنعومة، واللطافة، في لحظة، إلى عُنف يجعلك تتساءل: أحقّ هذا هو الدكتور كيلاي الذي أعرفه؟..

هذا ما عرفته عن شخصيّة الدكتور كيلاي، أمّا الحديث عن أدبه فهو سهل بقدر ما هو صعب. لأنّ الدكتور كيلاي دعامة سامقة في أدبنا العربيّ المعاصر، قد أغنى المكتبة العربيّة بخمسة وأربعين كتاباً، بين تأليف، وتحقيق، وترجمة... فهل من السهل أن نتحدّث عن هذا كلّ بدقائق معدودات؟

إنّ هذا يجعلنا نتحدّث جملةً لا تفصيلاً.

برع الدكتور كيلاي بكتابة السيرة، فكتب سيرة بعض معاصريه من الأدباء الذين عرفهم شخصيّاً، أو من خلال كتاباتهم، فأعطى كلّ ذي حقّ حقّه بدقّة وأمانة. كان أوّل كتاب ألّفه في أدب السيرة كتاب «عبقريّات شاميّة»، ويبدو من العنوان أنّ

الدكتور أحب أن يفخر هؤلاء العباقرة الذين أنجبهم شامنا، تربتنا المعطاءة، فكان لهم تأثير كبير في الإدارة والسياسة إبان الحكم العثماني، وهم: «أسعد باشا العظم»، و«عزة باشا العابد»، و«رضا باشا الركابي»، فخلد هؤلاء العباقرة في كتابه الممتع هذا، «عقريات شامية»، الذي اعتبره حافزاً على دفع طموحات الأجيال الصاعدة عندما يقرأون هذا الكتاب.

ثم عمل الدكتور في تحقيق التراث، وتخصّص بنتاج «أبي حيان التوحيدي»، ذلك الأديب الكبير الذي أهمل إبان حياته، فأحب الدكتور إبراهيم أن يُنصفه ولو بعد حين طويل من وفاته، تقديرًا له، وإعجابًا به.. وإن كتاب «البصائر والذخائر» الذي يبلغ وحده سبعة مجلدات، يحتاج تحقيقه إلى لجنة كاملة. وقد بلغ ما حقّقه من كتب «أبي حيان» أحد عشر مجلدًا، وكلّنا نعرف كم يحتاج تحقيق التراث إلى جهد، ودقّة، وصبر وأناة، ومعرفة وافية باللغة... وبعد هذه العشرة الطويلة بين «أبي حيان» والدكتور كيلاي، ألف الدكتور كيلاي كتابًا عن هذا الأديب الكبير، كتب فيه سيرة «أبي حيان»، وحلّل شخصيّته، وجمع ما قال فيه كبار الأدباء ومؤرّخو الأدب من شريطين وغريبتين، ثم اختار نماذج من كتاباته في شتى المجالات.

بمعنى أستطاع الدكتور كيلاي، بقدرة فائقة على الإيجاز، أن يكثف هذا العملاق في كُتيب صغير يتيح لقارّئه أن يُلمّ بالملمة وافية بهذا الأديب الكبير «أبي حيان التوحيدي».

وقد مارس الدكتور أيضًا الترجمة عن اللغة الفرنسية وبرع فيها. ومن يقرأ ترجماته يشعر وكأنها ألّفت باللغة العربية، وبروح عربية.

من ترجماته «تاريخ الأدب العربي» للمستعرب «بلاشير»، وهو ثلاثة مجلدات، كما ترجم أيضًا كتابًا عن شاعرنا الكبير «المتنبي»، ثم ترجم كتابًا آخر عن «الجاحظ» للمستعرب «شارل بلات»، ثم كتاب «الغزل عند العرب» للمستعرب «فادي»، ثم كتاب «أوج التحري عن أبي العلاء المعري» للأديب «يوسف البديعي» وغيرها... وكان الدكتور الكيلاني أول من عرفنا بالأدباء الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية.

أراد الدكتور من وراء هذا كله أن يعرف أبناء وطنه العربي الكبير، ممن لا يعرفون لغةً أجنبية، بأراء بعض الأدباء المستعربين بأدبنا العربي وإعجابهم به، وقد رفعوا بعض فرسانه إلى مصاف الأدباء العالميين.

في اعتقادي أنّ هذا النوع من الكتب لا يقتنيها إلا أرباب الاختصاص، أو عشاق الأدب، وهم مع الأسف قلة. ولو كان الدكتور ينشد الربيع المادي لترجم بعض الروايات الشهيرة، وما أكثرها، وما أكثر الإقبال عليها من جميع فئات القراء، ولكن الدكتور كما عرفناه، حفظه الله ورعاه، يسعى دائمًا لأن يفيد لا أن يستفيد...

وقد برع الدكتور أيضًا بفنّ المقالة، وقد جمع بعض مقالاته في كتاب بعنوان «أوراق»، في هذا الكتاب نكتشف نواحي من شخصية الدكتور «إبراهيم الكيلاني» فاتنا الحديث عنها..

إنّه الزوج المثالي، والأب العطوف، الرؤوف، الذي يذوب حنانًا أمام فلذات كبده.

يقول لصغرى بناته، «رهمة»، في مقال بعنوان «طفلي»، أنت فلذة من كبدي وأخواتك بقيّتها، وقطعة من قلبي وأخواتك بقيّته، وجزء من وجداني وأخواتك بقيّة أجزائه.

وللدكتور كيلاني خمس بنات، مدلّلات حفظهنّ الله له ورعاهنّ.

يقول عن كلّ واحدة منهنّ: إنها سراج منير يضيء لي طريقي في ديجور الحياة..

إنهنّ وأمهنّ ملهمات الدكتور كيلاني فيما يكتب، ونعم الملهمات..

وفي الكتاب أيضًا مقالة قيّمة جدًّا بعنوان «رسالة إلى كاتب ناشئ»، أتمنّى أن يقرأ هذه الرسالة الأدباء الناشئون جميعهم، ليستفيدوا من خبرة أدهب كبير ذوّاقة خلال ستّين عامًا من ممارسة الأدب.

إني لأعجب أشدّ العجب لماذا لم يمارس الدكتور كيلاني كتابة

الرواية، والمسرحية، ونظم الشعر؟؟ إنَّ لديه مقومات هذه الفنون الأدبية جميعها.. فهو لا ينقصه الخيال المبدع، ولا القدرة على التغلغل في حنايا النفس البشرية حتَّى أعماقها، ولا الربط بين الأحداث، وإدارة الحوارات الطبيعية بين شخوص الرواية، ولا الملاحظة الدقيقة لما يجري حوله من أحداث تصلح لأن تكون نواةً لرواية أو مسرحية، كما لا تنقصه رهافة الحسّ، وشطحات الخيال لنظم الشعر، وهو الذي يعجب بالأدباء الغربيين لأنهم يمارسون هذه الفنون الأدبية كلّها. وزيادة على ذلك كلّ يكتب المقالات ليُبصّر كُتّاب الرواية بأصول كتابتها، وفنّ تناولها، ويضع لهم الفوارق بين كتابة المسرحية، وكتابة الرواية... ولكن يبدو أنّ من ينشد الدقّة والكمال فيما يكتب، يحتاج إلى وقت طويل، وتفريغ للكاتب. والدكتور إبراهيم لم يكن متفرّغًا لكتابة الأدب!! كانت الوظيفة تستهلك أكثر وقته، وهذا من سوء حظنا نحن قراءه وعشاق أدبه!!..

أمّا أسلوب الدكتور كيلاي فهو صورة عنه. أنيق، جذاب، لا تكلف فيه، قد جمع رونق الحداثة، إلى متانة العراقة، يزينه زُواء الصديق، وجمال السبك، وقلمه شهم مثّاف، لم يمتعن شرف الكلمة ولا قداسة الحرف. فلم يعرف عنه أنه خطّ كلمة واحدة توحى بالتزلف، أو المدحاجة.

والدكتور كيلاي يحترم قراءه، فلا يحاول أن يتعالى عليهم

ليبهرهم بغرائب اللغة، أو غموض الفكرة وتعقيدها، كما يعتقد بعض الأدباء الجدد، إنَّ في هذا دلالةً على العمق. ولو شاء الدكتور الجري في هذا المضممار لكان له قصب السبق. ولكنه كغيره من الأدباء الكبار يعتقد أنَّ الفكرة المعقَّدة الغامضة تحتاج إلى تبسيط في الأسلوب لتُفهم من جميع فئات القراء.

أطال الله عمر الدكتور «إبراهيم الكيلاني»، ومثَّعه بالصحة والعافية، ليُمتعنا بعطاءاته الثَّرة، إنَّه السَّميع المُجيب.

تحية إلى مواطن قدير

نُشر هذا المقال، مختصراً،
في جريدة «تشرين»، يوم ١٢ - ٤ - ١٩٧٨.

تحية إله مواطن قديرا

المواطن العربي القديم هو «الإمبراطور فيليب العربي»، إمبراطور روما، بعثت إليه تحية إعجاب وإكبار من الصميم، وأنا أجوس الدارة التي بناها في بلده «شها» مسقط رأسه.

هذا المواطن العربي القديم الذي ساقته ظروفه، أو بالأحرى هو الذي ساقها، ليتبوأ عام ٢٤٤ ميلادية عرش أكبر إمبراطورية في عهده: الإمبراطورية الرومانية، مدة خمس سنوات وتوقف. كان الوفاء، والإخلاص، وحب الوطن، من سمات هذا الإنسان العربي الأصيل.. لم يُنسه بهرج الحکم، ومشكلاته، ومؤامراته، آنذاك، والعاصمة روما، وعظمتها وإغراءاتها، مدينته الصغيرة «شها» ذات الأحجار البركانية السوداء، القابعة على الجبل الأشم في «اللجاء»، في أقصى حدود إمبراطوريته المترامية الأطراف.

حقاً إنَّ حبَّ الوطن لقتال..!

لقد غمّر «فيليب» مدينة «شها»، وأحاطها بأسوارٍ منيعة،

ذات بوابات ضخمة أنيقة، وزينتها أحسن زينة، وجُرَّ إليها المياه على قناطر لتوزَّع على البلدة كلها وما زالت آثارها باقية إلى الآن. وبنى فيها أيضًا الحمامات على نسق الحمامات الرومانية، ومدفنا أنيقًا ليُدفن في تراب وطنه هو وأسرته. ولكن مع الأسف الشديد لم تحقِّق له الأقدار هذه الأمنية، فأستشهد في الحرب هو وأبنه... وقد أقام في «شهباء» مسرحًا، كما بنى فيها دارة أنيقة ليسكن فيها عندما يأتي من عاصمته «روما» ليزور بلده الأم «شهباء»، وقد فُرشت أرض هذه الدارة بفسيفساء نادرة ملوَّنة تمثِّل أساطير يونانية رائعة. يقول خبراء الآثار إنها من أروع، وأدقِّ، وأنقى فسيفساء في العالم، وقد وُقِّعت مديرة الآثار أحسن توفيق حين جعلت هذه الدارة متحفًا لمدينة «شهباء»...

تملكتني الدهشة، مع كثير من الأعزاز، وأنا أمام هذا الفن الرفيع القديم، الذي أبدعته أيادٍ سورية ماهرة من بلادِي. لا بدَّ لك، وأنت تشاهد هذا كلَّه من بعيد، أن تعجب من تناسق الألوان وتدرُّج الظلال، وأن تتساءل وكأنَّك غير مصدِّق، هل صحيح أنَّ هذا كلَّه من الحجر الأصمَّ بألوانه الطبيعية؟ أم رسمته ريشة مطواعة لفنانٍ مبدع، خيَّرَ الألوان، وأستخلص من مزجها ما يلائم هذه اللوحات ويحاكي الطبيعة أو يفوقها جمالًا؟ وعندما تصل إليها تمتدَّ يدك لتلمس اللوحة خلسة - لأنَّ اللمس ممنوع - لتتأكَّد من ماهيتها، كما لمسَّت تلك الحسناء

عقدھا اللؤلؤي لتطمئنْ عليه عندما رأت الحصى تتلألا في ماء
الغدیر الصافية كحبّات عقدھا تماماً..

يحدّثنا التاريخ عن هذا الإمبراطور العظيم* أنه ولد عام ٢٠٠
ميلاديّة، في مدينة «شهاب» في «اللجاء»، في بيئة عربيّة متميّزة. كان
أبوه أحد شيوخ القبائل العربيّة المقيمة في «اللجاء»، والخاصة للنفوذ
الروماني آنذاك، وكثيراً ما كان يتلقّب عرب تلك المنطقة بالقباب
رومانيّة، وقد تلقّب والد فيليب بأسم «جوليوس مارينوس»، وعُرف
فيليب بأسم «ماركوس جوليوس فيليبوس».

ولما شبّ هذا الفتى العربيّ عن الطوق، في هذه البيئة المعطاء،
ظهرت عليه بوادر النجابة والذكاء، وكان من أبرز صفاته الإقدام،
والشجاعة، وحسن التصرف، وإلى جانب هذا كلّ حباه الله
سبحانه وتعالى شكلاً مهيباً، وبنية سليمة، وقوّة جسديّة مؤهلة
لممارسة الحروب والتغلّب على الصعاب في أيّ مجال بصير وطول
أناة. ومن كان متحلّياً بمثل هذه الصفات لا بدّ له أن يكون
طموحاً. فكان «فيليب» طموحاً إلى حدّ بعيد. وبعد تفكير طويل،
وجد أن الانتماء إلى الجيش الرومانيّ هو أقصر الطرق لتحقيق
طموحاته الكبيرة..

* أكثر هذه المعلومات مستقاة من كتاب الإمبراطور «فيليب العربي»، تأليف عالم
الأثار الأستاذ «بشير زهدي»، الأمين الرئيسي للمتحف الوطني بدمشق وأستاذ
محاضر بكلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق.

ويبدو أنه ما كان ليظهر بها إلى أحد ولو كان من أخلص خلصائه، بل يدعها مدفونة في صدره حتّى يحين أوان الجهر بها.

ولم يلبث في الجيش إلا قليلاً حتّى يكتشف رؤساؤه مواهبه، فما أسرع أن عيّنه في الحرس الإمبراطوري. وبعد مدّة ليست بالطويلة مات رئيس الحرس فلم يجد الإمبراطور «جورديان الثالث» من هو أليق بهذا المنصب الحساس من «فيليب العربي»، فعيّنه رئيساً للحرس الإمبراطوري.

كان هذا في زمن كانت فيه الإمبراطوريّة الرومانيّة في حالة ضعف شديد، وكانت السلطة الفعلية للجيش، المكوّن من عناصر مختلفة من شتّى البلاد التي تحكمها الإمبراطوريّة الرومانيّة. وكان للجنود العرب العدد الأوفر.

في شهر شباط من عام ٢٤٤ ميلاديّة، ثار الجيش على الإمبراطور الشاب «جورديان الثالث»، وقضى الجنود المتمردون على حكمه وحياته، لأسباب كثيرة أهمّها قلّة المؤن والإمدادات اللازمة للجيش.. ونادوا برئيس الحرس الإمبراطوري «فيليب العربي» إمبراطوراً على عرش روما. ربّما كان لكثرة عدد العرب في الجيش الرومانيّ يدٌ في هذا الاختيار.

كانت أوّل بادرة من الإمبراطور الجديد هي أن أعاد إلى مجلس الشيوخ نفوذه، الذي كان قد فقده قبل حكم «فيليب

العربي، بزمّن ليس بالقليل. فعل فيليب هذا لأعتقاده أنّ وجود مجلس الشيوخ إلى جانبه يُعزّز شرعيّة حكمه. ثمّ ألغى السخرة، وقضى على العبوديّة، وخفّف من أعباء المصادرات غير القانونيّة، وأصدر عفوّاً عن المعتقلين السياسيين، وأعاد المنفيّين.. من أجل هذا كلّه كسب الإمبراطور «فيليب العربي» ثقة الشعب ومحبّته وتأييده.

كان «فيليب العربي» قد تزوّج عام ٢٣٧ ميلاديّة من فتاة رومانيّة هي «مارثيا أوتاسيلا سيفيرا»، ذات جمال وصفات حميدة نبيلة، وقفت إلى جانب زوجها في أخرج الأوقات تمدّه بالثقة بالنفس وبالشجاعة والصبر، وقد أنجبت منه صبيّاً عُرف بأسم «فيليب الثّاني»، ولما أعتلى زوجها «فيليب العربي» عرش روما سكّت دور السكّ ميديايات، ونقوداً تزوّجها صورتها النصفية الجميلة.

في عام ٢٤٩ ميلاديّة تمرّد الجنود على الإمبراطور «فيليب العربي»، فلم يجد مناصاً من الذهاب بنفسه لتأديبهم. وقد أصطحب معه أبنه «فيليب الثّاني» ليستعين به، ويمرّنه على الجرأة والقتال. فكان من جرّاء ذلك أن قتل أبنه أمام عينيه!!.. فقال لجنوده قولة حقّ وشهامة بعد أن أخرس في نفسه لوعة الحزن والكل، ما قيمة الفرد في سبيل المجموع!!.

وظلّ يقاتل حتّى استشهد!!..

وهكذا أنتهى حكم الإمبراطور «فيليب العربي» عام ٢٤٩،
بعد أن سجل له التاريخ أثناء حكمه مواقف تشهد له بالحكمة،
والجرأة، والشرف، والوفاء، والإصلاح، والإنسانية.. والعدل،
والشهادة.

وقد ورد في كتاب «تاريخ الحضارة» لمؤلفه «ديورانت»، في الجزء
المخصص للإمبراطورية الرومانية، هذه المقولة عن «فيليب العربي»:

كان «فيليب العربي» هذا رجلاً مثقفاً، مخلصاً لروما إخلاصاً
خليقاً بالشرف الذي ناله في القصص القديم.. وقد وضع فيليب هذا
في أثناء فترات السلم التي تخللت حرب «القوط» برنامجاً واسعاً
ليعيد إلى روما دينها، وأخلاقها، وعاداتها الصالحة، وأصدر أوامره
بالقضاء على المسيحية..

ثم عاد إلى نهر «الدانوب» وأنقض على أعدائه «القوط»، وشهد
بعينيه مقتل ابنه إلى جانبه، وأعلن في جيشه الهَيَّاب المتردد، إنَّ
خسارة فرد من الأفراد لا قيمة له البتة!..

واستمر في مهاجمة جيش العدو حتى قتل في هزيمة من أقسى
الهزائم التي أصابت الرومان في تاريخهم كله.

لا شك أنَّ الإمبراطور «فيليب العربي» يحتل مكانة مرموقة
في التاريخ العالمي، وليس أدلَّ على ذلك من تهافت المتاحف
على اقتناء تماثيله. فقد أحصى الأستاذ «بشير زهدي» تسعة

وثلاثين تمثالاً لرأس «فيليب العربي» موزعة على عدة متاحف في أوروبا. وقد يكون هناك تماثيل أخرى في متاحف لم يتح للأستاذ بشير زيارتها.. ولعلّ أجمل تلك التماثيل كلها التمثال الذي اكتشف أجزاءه في حمامات «شها» الأستاذ «غالب عامر»، ولكن مع الأسف الشديد إنّ التمثال محطّم وبعض أجزائه مفقودة فلا يمكن ترميمه، ولكن الرأس سليم، وهو من الرخام الأبيض وقد أبدعه على ما يبدو فنان ملهم، وما أدراكا قد يكون سورّيًا وعربيًا يعمل بحبّ وتقدير ليخلد شخصية مواطنه الإمبراطور «فيليب العربي» الشخصية القويّة الجذابة المهيبة كما يبدو في التمثال.

كم أتمنّى لو أنّ وزارة التربية تضيف إلى برامجها مادة رسميّة هي: «التعرّف على الوطن»، فتقيم رحلات للطلّاب والطالبات منذ المرحلة الإعداديّة حتّى آخر المرحلة الثانويّة. فلا ينال الطّالب أو الطّالبة «شهادة البكالوريا»، حتّى يعرف وطنه كلّ، سهوله وجباله، ومنايع مياهه، بحره وصحراءه، ومناجم ثرواته. كذلك يتعرّف على ناسه، فلا تحفّى عليه عاداتهم وتقاليدهم، ولهجاتهم، وألبستهم، وفنونهم، وموسيقاهم، ورقصهم. كما يتعرّف على أوابد وطنه، وعلى الحضارات التي مرّت به وتركت بصماتها عليه إلى الأبد.

وقد تكون الفائدة أعمّ لو يطلب من هؤلاء الطّلاب

والطّالبات وصف هذه الرحلات في درس الإنشاء، ووصف
أنطباعاتهم عنها، وما تركت من آثار في نفوسهم. فلا بدّ حينئذٍ
أن يرسخ حبّ الوطن في القلوب الفتية وينمو معها حتّى يصبح
عشقًا راسخًا في تلك القلوب كما رسخت في الراجحتين
الأصابع..

كلمة رثاء
في تأبين الصديقة الأدبية
حياة يافي الونار

أُقيمت هذه الكلمة
في «جمعية الإسعاف العام» مساء ٣ - ٤ - ١٩٩٤.

كلمة وثاء

فجد تأبين الصديقة الأليمة «حياة يا فجد الوتار»

وهكذا، في ومضة خاطفة من ومضات الزمن الغدار، تغتال
المنون حياة!!!.. أكاد لا أصدق، أو بالأحرى لا أريد أن أصدق،
أن حلوة الشمائل، ذات الطلعة المهيبة الوقور، أم الشخصية
الجلّابة، والضحكة المشرقة، قد رحلت عن دنيانا رحلتها
الأبدية!!

رحلت وهي تبدو لنا في تمام الصحة والعافية.. هوت كما بهوي
الشهاب، متألقاً، إلى مصيره السرمدي!!

أيتها الصديقة الغالية، لكم أكرمك الله سبحانه وتعالى فنوّلك
ما ترغبين فيه وتتوقين إليه..

طالما سمعتك تقولين: كم أتمنى أن أموت فجأة، لأنه يصعب
عليّ أن أعيش أسيرة دوائي، وفراشي، ونصائح طبيبي!.. أنا

لا أخشى الموت أبداً، ولكنني أخشى المرض والعجز. فالمرض ثقيل
حتى على أقرب الناس إليه..

وقد هيأت لك الأقدار، قبل رحيلك، مناسبة ممتعة، رحلة تمتد
يومين كاملين تزورين فيها أجمل بقاع بلادك الغالية عليك،
وتودعين صديقاتك من حيث لا تدريين، ولا يدريين أنه الوداع
الأخير!..

انتهت الرحلة، وعدنا إلى دمشق، وأوصلنا «حياة» إلى بيتها،
ودخلته أمامنا وهي في تمام الصحة والعافية، وكانت تسكن البيت
وحدها، ويبدو أنها فتحت حقائبها ووضعت محتوياتها في أماكنها..
وفجأة جاءت اللحظة الموعودة، ففوت حياة على الأرض، وأسلمت
الروح آمنة مطمئنة، فلا أروع ولا أبعد من هذه النهاية السعيدة..

إن أنس لا أنس جلسة لنا في هذه الرحلة، وفي مقهى متواضع
قائم فوق هضبة تشرف على شواطئ المتوسط، في قرية صغيرة
تسمى «أم الطيور»، كانت حياة تبدو لي، وهي تحتسي القهوة
وتدخن لفافة أنها في منتهى السعادة والغبطة. كانت ترسل نظرتها
إلى المدى البعيد في البحر الأزرق الهادي ثم تردّها يميناً فتشمل
بنظرة جوعى الجبال المكسوة بالأشجار الخضراء النضرة من سفوحها
حتى قممها، تنهض شاخة حول سهل فسيح أخضر، وقد زينت
خضرتها شقائق النعمان بألوانها الزاهية، وأنتشرت على أطرافه أشجار
الميموزا، والسيسبان، والليلك، وغيرها وغيرها.

وتقول لي حياة معتزة فخورة،

- إن بلادنا لا تقلّ جمالاً عن أجمل بلدان أوروبا. وأنا الآن
ألوم نفسي، كيف لا أعرف بلادي معرفةً وافية وقد بلغت هذا
العمر، وأعرف بلاد أوروبا من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها
إلى غربها؟! ألا ترين أنّ هذا تقصير من مدارسنا؟ يجب أن
تتميّح رحلات للطلاب ليتعرفوا على بلادهم، وعندما ينال
الطالب شهادة البكالوريا يكون قد عرف بلاده كلّها، وعندما
يعرفها يحبّها أكثر.

هكذا كانت آراء «حياة» دائماً محكمة وصائبة.

أيّتها العزيزة الغالية،

إنّ فجيعتنا بك هبطت علينا كالصاعقة غير المنتظرة، فلبثنا
ذاهلات فترة لا نعرف كيف نستوعب هذه المفاجعة الرهيبة،
ولكن الذي أخذ يخفّف من غلواء حزننا على فراقك هو أننا على
مثل اليقين أنّك قد غادرت هذه الفانية على أهون سبيل، وأنت
راضية مطمئنة كما عباد الله الصالحين، وهذا كرم كبير خصّك به
الواحد القهار..

ما أدري ماذا أروي من مآثرك الكثيرة الكثيرة؟..

منذ عرفتكَ، وما عدت أذكر متى كان أوّل لقاء لنا، منذ ذلك
الحين عرفتكَ تسيرين في خطّ مستقيم لا تحيدن عنه قيد أنملة..
ملتزمة دائماً بما يوحيه إليك ضميرك أنه صدق، وعدل، وصواب.

عرفتك الأبهة البازة، والأم المثلى الساهرة على تنشئة أولادها أحسن تنشئة، فلا تغفل عنهم طرفة عين، والزوجة العطوف الودود التي رعت الزوج أثناء مرضه الطويل أحسن رعاية، رعته كأم حنون.. ما سمعتك شاكية أو متلذمة، كأنك كنت تجدين في الشكوى مذلةً وضعفًا. وكأنَّ شموخ الإباء، وعنقوان الكرامة كانا يمنعانك عن الشكوى حتَّى إلى أخلص خلصائك مهما قاسيت من ضيق وتعب..

كما عرفتك أديبةً، ملتزمة بقضايا وطنك، وأمتك العربية، ودائما كنت تحضين في كتاباتك على مكارم الأخلاق.

وكان أسلوبك صورة عنك، أنيقًا، متزنًا، واضحًا، لا حشو فيه ولا تعقيد. وكم نودُّ لو أنَّ أسرتك تجمع لنا هذه المحاضرات، والمقالات، لتنشرها «جمعية الندوة الثقافية النسائية» ذكرى خالدة لفقيدتنا الغالية، إحدى أعضاء الندوة البارزات.

كما عرفتك، على الرغم من مشاغلك الكثيرة، لا تتوانين أبدًا عن خدمة بلادك ومجتمعك إن على طريقتك الخاصة أو عن طريق الجمعيات الخيرية، والاجتماعية، والثقافية، التي تنتمين إليها.

كما عرفتك، سنديةً راسخة الجذور، لا تهزُّك أنواع الحياة مهما تكن قوية، تظلين صامدة أمامها، متحلية لها، شاذغة الرأس، دائما أبدًا.

أيتها الراحلة الغالية علينا.

لئن غبت عن أحداقنا ستظلّ صورتك ماثلةً في أذهاننا، وذكراك
الطيبة مغروسةً في أعماق نفوسنا، لا تجرؤ الأيام على محوها على
الرغم من قدرتها الفائقة على المحو.

إنني لأطمح أن يكون لقاءنا قريباً في العالم السرمدى، هذا إذا
قُدِّر لي أن أرقى إلى درجتك، وما كلُّ ما يتمنى المرء يدركه!
إننا نسأل الله لك الرحمة، ولأسرتك وأقربائك وأصدقائك الصبر
والسلوان. إنه السميع المجيب.

الفهرس

٧	عادات وتقاليد الحارات الدمشقية القديمة
٣٥	المرأة والقيادة في الإسلام
٥٩	مع أدب الدكتور كاظم الداغستاني
٨٣	هوية دمشق
٩٩	قصة يوسف ذروة الذرى في الأدب القصصي
١١١	لمحة خاطفة عن الأدب الدكتور إبراهيم الكيلاني
١٢١	تحية إلى مواطن قديم
١٣١	كلمة رثاء في تأبين الصديقة الأدبية حياة يافي الوثار

أعمال الأدبية
إلفة عمر باشا الإطبايح

أولاً: القصص والروايات

١. قصص شامية:
الطبعة ١، دمشق، دار القنطرة العربية، ١٩٥٤
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٢
٢. وعاشاً يا حبهشلق، قصص،
ط ١، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٦٣
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٢
٣. ويصططك الشيطان، وقصص أخرى،
ط ١، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٧٠
ط [٢]، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩١

٤. مصحّح الطبع، قصص،
ط ١، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٧٦
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩١

٥. حكاية جسد، رواية،
ط ١، دمشق، ١٩٩٠
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩١

٦. دمشق يا بسمة الحزن، رواية،
ط ١، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨٠
ط ٢، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٠
ط ٣، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٥

٧. ما وراء الأنبياء الجبيلة، قصص،
ط ١، دمشق، إسهيلية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٦

• تُرجمت رواية «حكاية جدي» إلى اللغة الروسية من قبل فصيح بلرخان.
وتُرجمت رواية «دمشق يا بسمة الحزن» إلى الإنكليزية من قبل «بيتر كلارك»
مدير المركز الثقافي البريطاني بدمشق، وتُعاد طباعتها الآن في الولايات المتحدة
الأمريكية في طبعتين شعبيتين وفاخرة.
وكانت قد سبقَت ترجمةُ عليّ من قصص الأستاذة إلفا إلى سبع عشرة لغةً
شرقيةً وغربيةً.

ثانيًا: مقالات ومحاضرات

٨. الهوليا فهد دمشقي، وأحاديث أخرى؛
ط ١، دمشق، ١٩٦٤
ط ٢، دمشق، ١٩٩١
٩. نظوة فهد أكينا الشنقي، دراسات؛
ط ١، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٧٤
ط ٢، دمشق، دار الشادي للنشر والتوزيع، ١٩٩٢
١٠. لفحات دمشقية، ومحاضرات أخرى؛
ط ١، دمشق، دار سامي الدروبي للنشر، ١٩٩٠
١١. وطاع الأحبة، وثناءات؛
ط ١، دمشق، ١٩٩٢
١٢. محاضرات وتقايط الحارات الدمشقية القديمة، محاضرات ومقالات؛
ط ١، دمشق، إشبيلية للتراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٦

عادات وتقاليد الحارات الدمشقية القديمة ، محاضرات ومقالات
/ تأليف إلفه الإدلبي . - ط ١ . -
دمشق ، إشبيلية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٩٦ . -
١٤٤ ص ، ٣٢ سم .

١ - ٠٨١ إ د ل ع ٢ - العنوان
٣ - الإدلبي

مكتبة الأسد الوطنية

الإيداع القانوني ، ١١٠ / ١ - ١٩٩٦

إشبيلية : تنفيذ ١٠ (ط ١) - ٥٠٠ / ٢ - ١٩٩٦

صناعة الكتاب
بدمشق

التحضير الطباعي والطباعة ، دار الشام :

٢٢٢ ٧ ٩٩٢ 📖

التجليد ، مؤسسة الشفراء :

٣٣١ ٦ ٢٠٥ 📖



مكتبة

تم إخراج هذا الكتاب في دار إشبيلية بدمشق على برنامج
العربي للنشر

هَذَا الْكِتَابُ



... وفي حديث لغة الإدلي عن دمشق، الحارات القديمة وذكرياتها الدافئة - الذي تُرسله من على المنابر الثقافية هنا وهناك - كانت موقفة دائماً في أن تستحضر الماضي وتبعثه حياً، بكل ما فيه من حبٍّ وودٍّ وجمال، وأن ترشّه عطرًا على رؤوس الحاضرين، المأخوذين بسحر الماضي، المبتهجين بما ترويه لهم من طريف الذكريات وحلو التقاليد، وذلك كله قبل أن يُقَيِّضَ لهذه الأحاديث الشائقة أن تبقى وثيقة للأجيال.

وحبُّ «الدُّبَّار»، عند أدبية دمشق، لا يضاهيه إلا حبُّها لـ «من سكن الدُّبَّار»، فهي تتحدث، في هذا الكتاب أيضاً، عن أثر في نفسها من الأقارب والكتب والصديقات الحميمات. وإنْ أشتغالها بالأدب حبٌّ إليها أن تُحدِّثنا عما في القرآن الكريم من روعة القصص والرواية، وعنايتها بالثقافة جعلتها تُعرِّج على تاريخ سورية القديم، فتروي حكاية ذلك «العربي» الذي كان في عداد القياصرة الذين حكموا روما.

... إنّه كتابٌ متنوّعٌ في ثقافته، بقدر ما هو ممتعٌ بما حوّل من فصولٍ في الأدب، ومن صوَرٍ أستحضرتها لغة الإدلي من الماضي القريب والتاريخ البعيد.

فاضل السباعي

